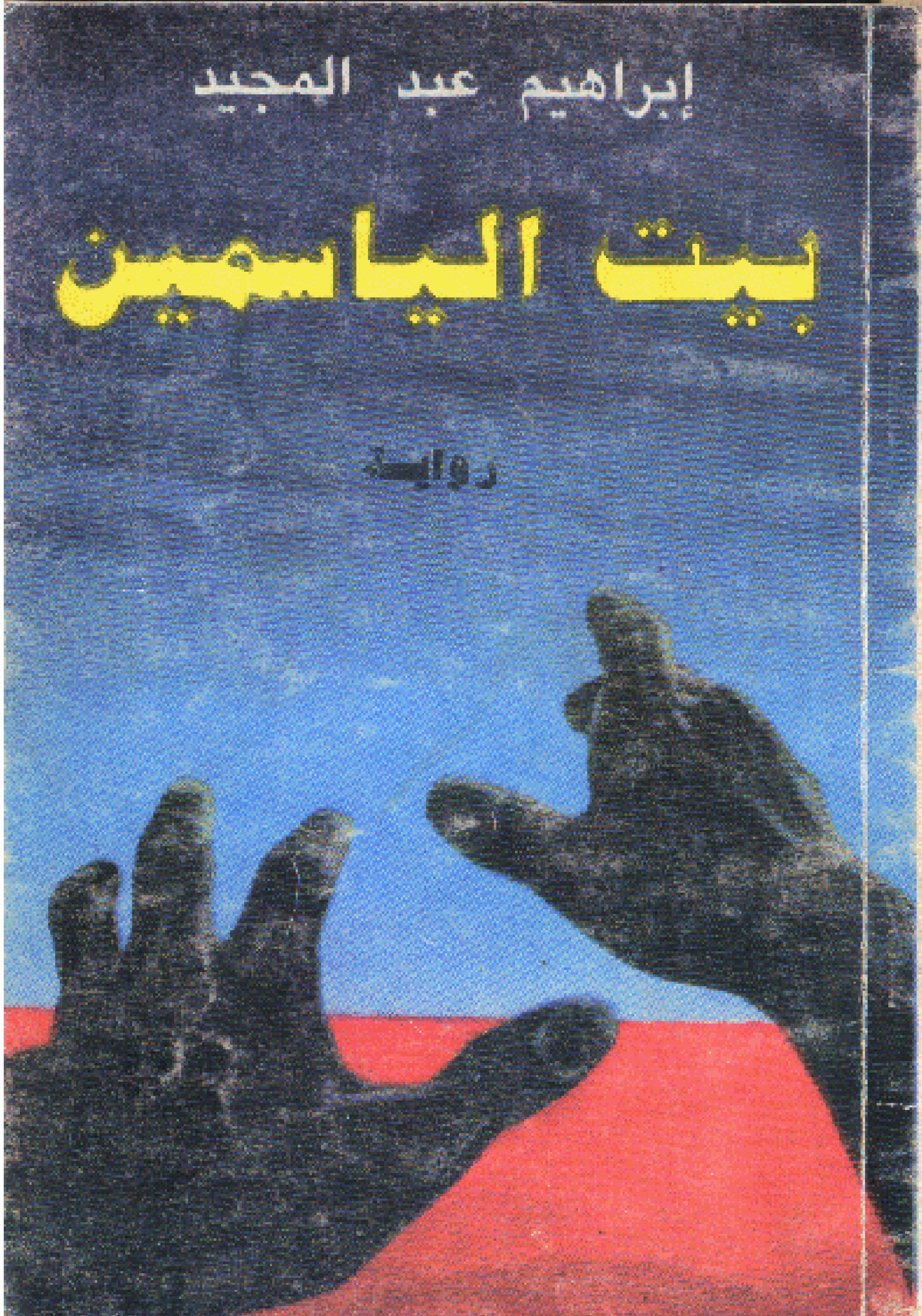


منتديات مكتبة العرب
http://library4arab.com/vb

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

بيت الياسمين

روايـــــــة

بيت الياسمين

رواية

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية

الطبعة الأولى ١٩٨٦
الطبعة الثانية ١٩٩٣

« أخرج الناس من ترعة المحمودية جثة فى جوال ما أن فتحوه حتى وجدوا أمامهم امرأة مبهرة الجمال تدب فيها الروح شيئا فشيئا وهم يتراجعون من حولها فى فزع حتى وقفت عموداً من نار فصعقوا وتساقطوا بين ميت ومغشى عليه بينما صارت ترمح فى الشوارع عارية شعرها الأصفر يطير عاليا وكل من ينظر إليها انجذب وصار يجرى خلفها ولا يعثر له أحد على أثر .... »

« ١ »

لم أفكر فى ذلك من قبل ولا خططت له . منذ امتلأ الأوتوبيس بالستين عاملا وخرج من باب الشركة وأنا أتساءل لماذا اختارونى . لم أجد سببا يخيفنى ، ولا سببا يشجعنى . تقدم الأوتوبيس فى شارع المكس ، وتجاوز منطقة القبارى ، ثم كفر عشرى ، فميناء البصل ؛ ودخل فى شارع السبع بنات ، وأنا لا أكلم أحدا ولا يكلمنى . كيف لم أشعر بالطريق ؟ . مسافة قصيرة حقا لكنها مميزة ، فعندما يتقاطع شارع المكس لابد تتعطل

المركبات ويزدحم التقاطع بعربات الكارو والنقل والمقطورات والأوتوبيسات والترام وتسمع صرخة إمرأة . تنتهي فجأة هدأة شارع المكس واستكانة المباني التي على الجانبين ، تلك التي تعطيك دائما الإحساس بأنك تمشي وحدك وبالليل . وبعد التقاطع اللعين لا تكف الضجة عن مطاردتك . ما تكاد تصل إلى كوبرى التاريخ حتى تكون رائحة الخيش والقطن المخزون قد غزتك ، رائحة مكتومة تختلط برائحة الغلال المخزونة أيضا في مخازن بنك التسليف العتيقة ، وترى رجلا يتبول واقفا ووجهه إلى جدار المخازن ، ورجلا يتغوط ووجهه إلى الطريق . تتحول الأرض إلى قطع صخرية فلا يكف الأوتوبيس عن الاهتزاز ، ولا الترام التي تكون في العادة جوارك عن الكركرة . لكنك حين تصل إلى تقاطع مينا البصل حيث يلتقي شارع الخديوي مع شارع السبع بنات يصبح المكان رطبا منعشا لارتفاع المباني ، ولانفتاح شارع الخديوي واتساعه على الميناء ، وتستطيع أن تنام غير مبال بشيء . لكنا تجاوزنا هذا كله ..

وقفت فكاد رأسي يصطدم بالسقف . إنحنيت قليلا وتطلعت إلى وجوههم . لصمتهم الغريب كدت أشتمهم . إبتسمت . الاسكندرية في هذا الوقت من كل عام تكون واسعة بالضوء المبهر . يرتاح بحرها في لا مبالاة ، وتفتح البيوت نوافذها كإمرأة تجفف شعرها تحت ضوء الشمس ، والفتيات تمرحن في الشوارع .

كنت أعرف أن الزحام المفاجيء الممتد من محطة سيدى جابر حتى قصر رأس التين الأبيض لن يضر المدينة . لن يشوه منظرها . وها هي تبدو غير عابئة به . بعيد أنا الآن عن هذا الزحام ، لكن شارع السبع بنات كعادته مستكين للسيارات والمركبات التي ترمح فيه ، والدكاكين مفتوحة بلا ضجة أمامها . سمعت في الأيام التالية أحد الذين شاركوا في الزحام يقول أنه اختفى بسرعة ، وأنا بدوري أدعم شهادته ، وإلا ما معنى هذا الارتياح في شارع السبع بنات كأن ما يحدث في المدينة لا

يعنيه ؟ ! .. هذه المدينة الصغيرة مسحورة تطرد شوائبها حتى لو اختفى منها الزبالون وسيارات الرش الليلية . إتفاق بينها وبين أشباح سرية أن تظل جميلة ..

قلت :

— طبعا تعرفون أنه بعد الاستقبال سيأخذ كل منكم نصف جنيه . ؟

— ....

— ما رأيكم أن يأخذ كل منكم ربع جنيه وننصرف الآن ؟

ولابد أن ملامح وجهي تجهمت لأني شعرت بعيني تتسعان .

— يعني لا ترى نيكسون ؟

— أنت حر تراه أو لا تراه .

تساءل أحدهم ورد الآخر عليه .

إستجاب السائق لأمرى فتوقف باسما ونزل العمال ضاحكين . ولا أعتقد أن شرطي المرور الواقف عند نهاية الشارع اهتم بأتوبيس يسد التقاطع مع سوق الخضانية ويعطل عبور المشاة وحركة الترام . أما أمي التي لابد كانت في باحة البيت الصغيرة تلقي للدجاج بفتات ، النخالة المعجونة بالماء ، فلا أظن أن قلبها خفق ، أو صدرها انقبض ، وابنها ، صاحب الإسم الغريب ، يرتكب جريمة ...

***

لم تتجاوز الواحدة ظهرا ووجدت نفسي على الرصيف أمام مقهى الكريستال الذي كنت جلست فيه لأتفرج . لقد مر الموكب وتسرب المزدحمون إلى الأزقة الجانبية المفضية إلى المنشية ومحطة الرمل . الفضاء أبيض رائق والبحر أزرق ممتد والسماء عالية جدا وأنا أقف وحدى كأني أتيت بعد انتهاء العالم . كدت أضحك حيث فكرت أنه يمكن أن تبدأ بي دنيا جديدة . إرتعشت . صعب أن أكون النبي آدم ، وأصعب أن تخلو

الدنيا إلا منى .

لم أر الذين أصطفوا على الرصيف المجاور لسور الكورنيش يعبرون الشارع . ربما تراجعوا وسقطوا فى البحر . لمحت رجلا وحيداً بعيداً عند النقطة التى ينحنى فيها الكورنيش ويختفى ، وتحتل العمارات العالية زاوية المنظر ، ويبدو لسان قلعة قايتباى كأنه بارز منها . لعل الناس تابعوا الموكب إلى القصر والرجل البعيد ذيلهم . لم يمض وقت طويل ليحدث هذا وما كان ليغيب عنى .

تراءت لى ابتسامة الرئيس العريضة المقسمة بالألق . إبتسامة نيكسون الملتوية بالدهشة ، ووجهه الأحمر بارز الوجنتين ، وتلويحه بذراعه اليمنى بطريقة عشوائية كأنه يدهن جداراً بعرض الفضاء .

كان على جانبى العربة المكشوفة السوداء ، العريضة مثل بطة خرافية ، أمريكيان ينظران عكس اتجاه الموكب ، لا تفارق عيونهما النوافذ العالية ، ويد كل منهما على مسدس فى جانبه . لماذا كان الذى ناحية البحر ينظر إلى أعلى أيضا وليس فوق الماء غير السماء ؟ .. أدخلت يدىَّ فى جيبى بنطلونى . قذفت عقب السيجارة من بين شفتى بنفثة ماهرة تعودتها ومشيت أفكر فى عقلى الذى صار يعمل بشكل غريب :

***

ستون عاملا فى ربع جنيه تعنى خمسة عشرة . توفّر لى إثنا عشر . كنت فكرت أعطى السائق خمسة جنيهات . أدركت أن أى مبلغ سيأخذه يعنى مشاركته . أعطيته ثلاثة وابتسمت من الخبث الذى أصابنى فجأة ..

عبرت شارع الغرفة التجارية من عند رأسه فدخلت فى شارع سعد زغلول . لاحت منى لفتة إلى اليسار فرأيتهم يشربون القهوة أمام محل البن البرازيلى . الفتيات ترتدين جوبات محبوكة على أردافهن تبرز حز السروال

الداخلى المنغرس فى اللحم القوى ، ومن فوق بلوزات خفيفة تضج تحتها السوتيانات .

— كابتشينو .

رفع الىّ عينيه . هل ثمة خطأ ما ؟ هل لأنى طويل ؟ . هل لأنى دخلت المحل وحدى ؟ . أكثر من شاب وفتاة يتهامسون فى الأركان . وقفت وحيدا بين الهمس الخفى . اكتشفت أنى عاجز عن التلفت . أستبيح الخلوات . وأكلف من ينظر الىّ أن يرفع عينيه عاليا ...

— باردون ..

قالت التى كادت تصطدم بى عند الباب وهى تدخل مندفعة . تراجعْتُ خطوة فأوشكت تقع من فوق درج العتبة . أمسكت بذراعها فانغرست أناملى فى اللحم الطرى وغزتنى رائحة العطر فبعثرتنى . فكرت أن ملابسى تطايرت وأحسست بأنفى ينفسح . إشتريت صحيفة من جوار المحل ومضيت . برودة لحم الذراع الطرى فى أناملى ، ولا أعرف ماذا يقول الواقف خلف جهاز القهوة عنى وأنا أنصرف قبل أن يجهز لى قهوتى ..

***

فى شارع صفية زغلول أدركت أن قدمىَّ هما اللتان تمشيان بى . أحب هذا الشارع . ولا أحد أحب سينما « الهمبرا » مثلى . تفتح دائما أبوابها مبكرا فيختفى فيها الطلبة . لابد أنها تفعل ذلك حتى الآن . نجلس ساعة حتى يبدأ الفيلم . للأرض المغسولة رائحة أليفة . اللمبات خافتة الضوء على الجانبين متباعدة . ونور دورة المياه مميز . للجلوس نظام تلقائى كأنما المدارس انتقلت كاملة وليس طلاب متفرقين . وشتائم . تجارة محرم بك تحيى الصنايع . بعوض الله . يعوض الله . سبع صنايع فى إيدينا واهم مايل

علينا . ثم ترلم ترلم . اسكندرية الصناعية تحيى العباسية الثانوية . يسقط المطر من السماء . يعيش السمك فى الماء . العباسية تحيى التجارة . سبيروسباتس خان الشعب . سبيروسباتس خان الشعب . ونور دورة المياه مميز . الوقت طويل حتى يبدأ الفيلم . وطنى حبيبى . الجميع يغنون .. وطنى الاكبر يوم ورا يوم أمجاده بتكبر وانتصاراته ماليه حياته وطنى بيكبر ويتحرر . وطنى وطنى . عاش الجيل الصاعد عاش ! ..

ويرتفع الصفير . ويبدأ الفيلم الحقيقى ونور دورة المياه مميز . بخار القطار ينطلق فى ردف مارلين مونرو ، وجاك ليمون يترك شقته لمديره يأتى فيها بشيرلى ماكلين ، ورافى فالون يغتصب صوفيا لورين فى دكان الفحم ، وجينا لولو بريجيدا تقفز أعلى السيرك مع تونى كيرتس ، وبيرت لانكستر يتبسم ببلاهة أمام جارى كوبر ، وكيرك دوجلاس يمس بيده حزينا بطن جين سيمونز المنتفخة بابنه ، إبن سبارتاكوس ، وجاك سيرتاس يخطف روزانا بوديستا فتقوم حرب طروادة ، وستيف ريفز يخلع الشجرة يقذفها أمام العربة التى جمح حصاناها ، ويقول رجل غريب بيننا جاءت جلسته جوارى أنه كان يعرف « هرقل » هذا معرفة حقيقية ولكنه تركه وذهب ليشتغل فى السينما ، وباب دورة المياه مميز ينفتح وينغلق كل دقيقة ووجهى للشاشة ، وحيوانى يتجه إلى الباب . سخونة على فخذى وأباعد بين ساق وأقوم . لست وحدى الذى يسفح دمه على بلاط دورة المياه . الزحام شديد وكل ينظر الى الأرض فى استغراق يخفى سراً معلنا وليس أمامى إلا رؤوسا مهوشة الشعر . لماذا أتذكر تلك التفاصيل الخائبة الآن . إنتهى ذلك كله ولم أكن فى حاجة إلى قرار أو إرادة . لم أعد أدخل السينما ولا فكرت فى حيوانى . هل من المعقول أنى نسيته ؟ لا يجب أن يشغلنى الآن ولأنظر إلى الأمام .

الشارع نظيف كما هو دائما . يجتاحنى إحساسى القديم بأنه ملكى ، وبأنى الذى بنيته وحددت بدايته ونهايته وأقمت على جانبيه المبانى . هاهو

نفس هواء الصباح يرح فيه رقيقا له طعم ماء النبع . شمس الظهيرة كعادتها تخصه بأوهن الأشعة وأنصعها . كأننى لم أمش فيه منذ سنوات ! . لماذا أدرك ذلك الآن فقط ؟

فكرت ألقى بالصحيفة فى أول سلة مهملات كى أسير وحدى .. مشغول أنا الآن باصطياد الهواء المعطر بالنساء . تجرى عيناى مع الأشعة فوق السيقان اللامعة . لن أجلس فى مقهى البلياردو الواسع عالى الضجيج . كان هانى هو الفائز دائما . قابلته صدفة منذ ثلاث سنوات جوار « الدليل » . لم يكف عن الضحك كعادته . كيف يضحك « رائد » فى الجيش بهذا القدر وسط ميدان عام ؟ . إلا أنى سعدت . لم يتجاهلنى . سألته هل لا يزال راشد يحفظ أغانى عبد الحليم ؟ قال أن راشد بعد أن تخرج من كلية الطب التحق بالجيش ولم يعد يراه ... الجيش كبير وواسع . وقال أن لا أحد يخرج من الجيش الآن .

— ألم تلتحق بالجيش ؟

سألنى . قلت :

— أنا وحيد كما تعرف .

— إذن أنت مسؤول عن الجبهة الداخلية .

هتف وضحك بلا حساب ومضى بعد أن قال أنه منذ زمن طويل لم يقف فى محطة الرمل ، وإنما جاء هنا اليوم ليتصل بخطيبته التى فى القاهرة .

***

— سكتوب .

— آسف .

نظرت إلى النادل الأسود الرشيق . لا أعرف شيئا آخر ولا أدرى أن على المنضدة قائمة .

فى « إيليت » يجتمع العشاق وتسمع فرقعة القبلات . كان هانى يحكى لنا قصصا خرافية . التحق بالكلية الحربية ليوقع أكبر عدد من الفتيات فى غرامه . ما الذى دفعنى الى إيليت الآن ؟ . .

كنت وقفت أمام سينما رياللو مشدوداً إلى الصور المعلقة فوق شباك التذاكر . لم تزل جين ما نسفيلد تتوسطها بصدرها الذى يكاد يتفجر بين يدىّ لكننى لم أعد أجمع هذه الصور الكارت بوستال أصنعها معى لدورة المياه فى البيت . لم أعد أشترى أى صور كارت بوستال ، والمصانع كفت عن وضع صور النساء العارية مع قطع الصابون .

لابد أن الدولة هى التى أصدرت قراراً بذلك . لابد أنها أيضا التى غيرت اسماء وأنواع الصابون . لا تعرف الدولة أنى ابتعدت عن عادتى السيئة دون قرار أو ارادة ...

لم ألق بالصحيفة بعد . تركتها تسقط جوار قدمى . تحت شابا وفتاة يتفرجان على صور الفيلم المعروض وقد تشابكت يداهما . يختلسان النظر إلىّ ويتهامسان ويبتسمان . إنحنيت وتناولت الصحيفة . شعرت بألم فى بطنى فعبرت الشارع إلى إيليت .

— لماذا لا يوجد سكلوب ؟

— لا يوجد بيض . نفد فجأة .

— إذن جمبرى . جمبرى كبير ومشوى وبيرة .

ولم أتراجع . على المناضد فتيات ناضرات بالفرح والإنوثة ، وفتيان أيضا ، والموسيقى حالمة كما يقولون . لماذا هذا الصمت بعد دخولى . هذا الجو الرطب حنون حقا لكنه يفتح المسارب للنوم . لا قبلات حولى ولا همس . أشعلت سيجارة ورأيت القائمة أمامى فجعلت أقرأ أصناف الطعام . هل سيتكرر إخراج الشركات للعمال لتحية الرئيس . يزور الاسكندرية فى السادس والعشرين من يوليو . ينقل نشاطه إليها غالبا فى الصيف الآن . إذن فرصتى فى الذين يزورون الرئيس فى الصيف .

لكن ... ياالله ... لقد توترت العلاقات بين مصر وسوريا . بين مصر وليبيا . بين مصر والاتحاد السوفيتى . بين مصر والفلسطينيين . أربعة زعماء لن يزوروا مصر ، وقد يزيدون .

كان النادل قد وضع أمامى زجاجة البيرة وكنت شربتها . ألمٌ فى بطنى . شربت البيرة كأنها ماء ومعدتى خاوية . وسبقت الجمبرى رائحته والنادل يتقدم به مسرعا . لم أر رؤوسا تشب خلف المناضد . لابد الآن من قذف الطعام إلى جوفى بسرعة . فكرت ولابد أنه تفكير صحيح . طلبت زجاجة بيرة أخرى . فرصتى الأكيدة وحيدة هى السادس والعشرين من يوليو . ماذا لو نقل الرئيس نشاطه إلى الاسكندرية قبل هذا التاريخ ؟ لن تكون هناك استقبالات . لن يزور الاسكندرية وهو فيها .. كل شىء إذن يعتمد على الحظ . صداع خفيف ينتشر فى رأسى ويتجمع قويا فوق جبهتى . لم أشرب البيرة قبل اليوم !!

نهضت بعد أن دفعت ستة جنيهات كاملة . نصف زيارة نيكسون . لقد دارت بالمدينة اشاعات عن السفن الأمريكية التى تفرغ السمن واللبن الجاف ، وبلغ من قوة الإشاعات أن قال حسنين أمس أن سكان بحرى والأنفوشى يحجزونها لأنفسهم ويحرمون منها بقية الشعب ... قيل أيضا أن جنود البحرية الأمريكية يوزعون الدولارات بالمنشية ، وأن طائرات الهليوكوبتر تلقى بأجولة الدقيق الفاخر فى مظلات من الحرير اليابانى ، وأن المظلة أفضل من الدقيق فقماشها ناعم يصلح سوتيانات وكيلوتات لأنه من دود القز ... هذا كله كذب . الفائز الوحيد من زيارة نيسكون هو أنا ، حتى الآن على الأقل ، والكارثة ، أن الاسكندرية لا تعرف ذلك أيضا ، ولقد بددت نصف ما كسبته ، ولا يخيفنى إلا أن أسقط من الصداع والسكر وثقل الطعام . سقوطى سيكون مضحكا ومدويا مثل سقوط عمارة « الحاق » . لا يجب على الطويل أن يسكر أبدا . آه . ما الذى جعلنى أدور هذه الجولة . هل هكذا يفعل اللص ؟ . كنت فكرت اشترى حذاء

لأمي وجلبابا . لماذا نسيت ؟ ..

***

تجاوزت الساعة الثالثة والنصف وأنا أقف أمام باب « إيليت » . الجو حار والعرق يغمرني وشارع صفية زغلول يحتذلني ويمتلىء بالوهج .

— هل يمكن أن تصل بى إلى « الدخيلة » ؟

— ممكن طبعا .

أجاب وفتح باب التاكسي من الداخل وابتسم . هل لطولى أم لاتعاقى الشديدة أم لرائحة البيرة من فمي ؟ تركت نفسي غير عابىء بهؤلاء الناس السعداء . نمت وأيقظني بعد أن تجاوزنا منطقة « المكس » . مسحت بيدي العرق السائل على رقبتي . أعطيته جنيها كاملا . ضعف ما يستحقه فشكرني . أول ما واجهني من البيت الأرضية غير المبلّطة ، والتي غطاها أبي منذ سبع سنوات بطبقة عشوائية من الأسمنت . خلعت ثيابي وعلقتها على الشماعة التي فوقها كل ملابسي . ارتديت البيجامة ووجدت في أحد جيوبها قطعة فضية بخمسة قروش . متى وضعتها ولماذا ؟ تمددت فوق السرير . لابد أن أمي تغدّت وحدها ولم تنتظرني فهي نائمة . أشعلت سيجارة وحاولت أن أنفث دخانها بهدوء وقوة وتركيز ليصل إلى السقف الخشبي فلم يصل . لابد أني تركت الصحيفة في إيليت . فكرت في أن أبيع البيت ، وأتابع السياسة الخارجية في الصحف . ما هذا الهياج الجنسي ؟ .

***

رأيت أمي تقف متعبة على باب الحجرة تتأملني كأنها لا تصدق أني دخلت البيت وحدى ! . قلت لنفسي لو يزور الرئيس الاسكندرية في عيد الأم ..

— مالك ياشجرة ؟

— لا شيء . فقط أفكر في الزواج .

« بعد النكسة ظهر رجل يدور فى شوارع « القبارى » حافيا كثيف الذقن والشارب والشعر مهترىء الثياب ويقف كثيرا ليصيح « طز فى الأمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس » ويصرب كلباً معه يسميه جونسون . بعد عام ظهرت معه كلبة يناديها بجاكلين ثم كلب اسماه أوثانت وازدادت الكلاب تحمل أسماء برانت وسوهرتو وأنديرا ولورد كارادون وجولدا والمزاريث وبوميدو وغيرها . صارت مسيرته مشهدا تفتح له النوافذ والشرفات ، وازدحم خلفه الأطفال يصرخون « طز فى الأمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس » . يومان لا ينساهما الناس لهذا الرجل . يوم مات جونسون فسكر وتمدد على الرصيف يبكى بحرقة وجثة كلبه فوق ساقيه ، ولأنه كان سقى كلابه خمراً صارت تمرغ وتنبح نباحا متقطعا بالفواق الذى لم يتصور أحد أنه يصيبها ، ويوم مات الرجل نفسه الأسبوع الماضى فمشت الكلاب وحدها تصيح « طز فى الإمبراطورية البريطانية التى لاتغيب عنها الشمس » .

« ٢ »

لم يمر بى يوم كئيب بارد ممل مثل اليوم التالى . فى كل لحظة فكرت أن أحدا أذاع ما فعلت فانتشر كما تدور الماكينات . أمضيت اليوم أنا والخوف فى مكتبى ، إلا أنى رأيت السائق و الأسطى زينهم « عند الانصراف يقف

بباب الإدارة يتأملنى باسما . صافحته وأحسست بالحب نحو هذا العجوز ذو الكرش الكبير ..

***

من خلفي مرت الأيام كعادتها . عمل فى الصباح فى حجرة تتضخم فيها الملفات وتقترب منى مترية ، وبالليل ألعب الطاولة مع حسنين وماجد وعبد السلام ولا يزيد لنا أصدقاء . ربما اخترنا « مقهى الماسخ » بالذات لذلك ، فهى تطل على الطريق الرئيسى الموصل الى « العجمى » ، والذى يفصل « الدخيلة البحرية » الأُصلية المطلة على البحر ، عن « الدخيلة الجنوبية » المُستَحْدَثة التى توغلت فى الجبل . سكان الشطرين يفضلون مقاهيهم القريبة ، ومقهى الماسخ لا يجلس إلا عابرون ، وبعض طلاب صغار لا يحبون الزحام ، يتغيرون لكن يروننا كباراً فلا يختلطون بنا . تعرفت على حسنين منذ حوالى عام حين اشتركنا بالصدفة فى انقاذ فتاة من الغرق . قال انه يسكن بالقبارى ويتردد على شاطىء الدخيلة منذ صباه ، وله هنا أصدقاء كثيرون لم يبق منهم غير ماجد الصيدلى الذى عرفنى عليه فى نفس اليوم ، وتحدثنا كثيرا عن عبد السلام صديقهما المهندس الزراعى الذى يكاد يكمل العام العاشر فى الجيش .

— ست سنوات مضت عليك فى الدخيلة ولا تعرف أحدا ؟

سألنى حسنين .

أجبت :

— أخرج الى عملى وأعود صامتا لا اختلط بأحد وقليلا ما خرجت الى الشاطىء .

ابتسم وقال :

— كان فى شارعنا شاب مثلك اعتقد الناس أنه مخابرات .

بعد شهرين من لقائنا قامت الحرب . استدعى ماجد الى الاحتياط . عرفنا أنه فى الخطوط الخلفية مع الفرق الطبية ، ووجدت نفسى قلقا مع حسنين على عبد السلام الذى لم أره . ازداد قلقنا حين عاد ماجد بعد انتهاء الحرب وعرفنا أن عبد السلام محاصر مع قوات الجيش الثالث . بعد فك الحصار وعودته اندفعت احتضنه كما لو كنت أعرفه حقا ، وقلت له أننى منذ بداية الحرب أحلم أحلاما جنسية ، والغريب أن من بينها حلما كاملا مع جولدا مائير .. ضحك كثيرا جدا ، لكننى والله لم أكن أكذب ..

***

إمتلأت الاسكندرية بالزينات فعرفت أن العام قد دار ولم أهتم . دفنت فكرتى فى بيع البيت ومشروعى فى الزواج . لا أريد أن أطل من نوافذى لأنها تنفتح علىّ . لا نجاة إلا بسرقة كبرى وليس هذا عملى ولا فى قدرتى ، أو السفر الى بلد نفطى وهو عجزى بسبب أمى . لكن الدكرورى نقيب العمال النحيل شاحب الوجه قال لى : « مائتا عامل هذه المرة ، عدد ضخم يجب أن تعرف كيف تسيطر عليه . لكل عامل جنيه ونصف » .

تقرر أن أقف بهم يوم السادس والعشرين من يوليو على طريق جمال عبد الناصر عند محطة سيدى جابر حيث سينزل السادات من القطار الخاص متجها الى المعمورة . عند تقاطع شارع السبع بنات مع سوق الحقانية أوقفت الاوتوبيسين . أعطيت كل عامل جنيها واحدا . استغرقت وقتا فامتلأ الشارع بالسيارات الصارخة ، وأصبح ميدان المنشية كالجحيم من زحام المركبات ، لكن مر كل شىء بسلام . أعطيت الأسطى زينهم الذى يصحبنى للمرة الثانية خمسة عشرة جنيها ، وكذلك السائق الآخر الذى يصحبنى لأول مرة . أدرك ما فعلناه فضحك .

قلت :

— لا خيانة

— لا خيانة .

وانصرفا مسرورين ...

انتعشت آمالى من جديد لكن لم يبد من الصحف أن شخصية هامة ستزور مصر هذا الصيف . خبأت السبعين جنيها بالمرتبة التى أنام فوقها صارت مائة بعد أن صرفت لنا الشركة مكافأة تعادل مرتب شهر بمناسبة تدشين سفينة جديدة . ومضى الصيف صامتا . أيام الجمع التقى مع حسنين وعبد السلام على الشاطىء . يتخلف ماجد لعمله فى الصيدلية . ماجد يقول دائما أنه يوم يمتلك صيدلية خاصة سيجعل راحته يوم الجمعة وليس الأحد ، وأنه يقتل نفسه فى العمل عند غيره ليحقق هذا الحلم .

فى كازينو « بيسو » نتفرج على الناس من حولنا . يتحدث عبد السلام عن شاطىء الدخيلة قديما حين كان نظيفا غير مزدحم ، والأجانب الذين عاشوا فى الفلل خلف المحكمة يقيمون الحفلات التمثيلية والرياضية والموسيقية للناس بالمجان . زحف الاهمال على الشاطىء وتغير رواده . يأتون الآن من « القبارى » و « المتراس » يحملون معهم الشجار والصراخ جوار أوانى الطهو والأطفال . وحسنين لا يكف عن بث الابتسامات والإشارات بيده للنساء والفتيات فاذا تجاوبت احداهن اشتعل وجهه بالخجل . « الى هنا فقط . لا أستطيع الاستمرار » . يقول ويبتسم فنضحك ويعود يبث الابتسام والاشارات . وأنا كثيرا ما أفكر فى المائة جنيه وأقرر فى لحظات يأس أن أبددها . ودخلنا بعد الصيف فى الشتاء . وسألنى حسنين بالمقهى ذات مساء :

— لماذا تبدو شاردا هذه الأيام .

قلت :

— بالعكس أشعر أنى حاضر الذهن تماما .

قال ماجد أنه كثيرا ما يشترى منه الزبائن الأدوية ويتركونها ويأتون فى

اليوم التالى يسألون ما إذا كانوا نسوا شيئا عنده . وقال عبد السلام أنه وهو يركب القطار الى رشيد كل يوم ذاهبا أو قادما من عمله يلاحظ أن الناس تكاد تتشاجر عند الصعود أو الهبوط بالمحطات ، وما يكاد الصاعدون يدخلون العربة فيقفون أو يجلسون حتى يتلبسهم صمت الطرشان . حزمت أمرى على الذهاب الى « المقدس يحيى » الذى يبيع السجاد والحصر دائرا بها على كتفه فى الأزقة فهو معروف أيضاً كسمسار .

***

قلت لأمى « سوف أبيع البيت » . كنت متزملا ببطانية خشنة أقرأ جريدة المساء التى عنوانها « بيروت تحترق » وكنا نسمع صخب الهواء وصوت المطر الذى يضرب البيوت والطرقات بشراسة .

— بعه يابنى .

قالت ولم تنظر الىّ . كانت جالسة أمام وابور الجاز المشتعل تدفىء يديها والحجرة . أيقظها المطر فى هذا الوقت من الليل وصوت الدجاج المستغيث الذى قالت عنه منذ قليل أنها ترغب فى تجديد عشه .

— سأستأجر شقة واسعة بالجهة البحرية .

— بعه يابنى .

قالتها بنفس الطريقة التى لا أعرف هل تنم عن رضا أم تشى باليأس . بعد أيام جاءنى « المقدس يحيى » الذى قرر أن يشترى البيت لنفسه ، ومعه « عبده الفكهانى » الذى يبنى عمارة على البحر مباشرة قرب المطار . المقدس يحيى هو الذى دلنى على الفاكهانى وقال أنه سيتوسط بيننا ليعطينى شقة .

بَصَمَتْ أمى على عقد بيع البيت بألف جنيه على أن نخليه خلال ستة أشهر ، ودفع المقدس يحيى الألف كاملة . كانت هذه أول مرة أرى فيها

الألف جنيه . حرر لى عبده الفاكهانى عقد إيجار شقة استلمها خلال نفس الفترة وأخذ الألف جنيه . أمى صامتة لا ترمش لها عين وقلبى يهبط بين ضلوعى . من الفائز ؟ . معى حقا عقد إيجار شقة لكن يمكن أن لا يعدو كونه ورقة غير قابلة التنفيذ لأى سبب بينما ضمن المقدس يحيى بيتا وفاز الفاكهانى بالألف جنيه . لم أستطع التراجع . حين تكون طيبا مثلى لن تتراجع . ثم أن هناك نوعا من السعادة يتسع داخل الإنسان فجأة فيجعله لا يرى أكثر مما أمام عينيه .

انقضت الشهور الأربعة التالية والمقدس يحيى لا ينقطع عن زيارتنا ، وأنا أتردد كثيرا على العمارة وعبده الفاكهانى وازداد اطمئنانا .

— لماذا لا تجلس أمك معنا ؟

سأل المقدس يحيى مرة . لم أجد ردا . لم تعد تتحدث معى كثيرا . كلما مات « كتكوت » تحضره لأراه . لو كنت بالخارج احتفظت به حتى أعود لأراه فأمسكه من ساقيه اللينتين وأقذفه بطول ذراعى فوق البيوت المتزاحمة بالاكتاف .

— حين تنتقل إلى الشقة الجديدة ستردّ إليها الروح .

قال المقدس يحيى ومضى ، وفى زيارتى التالية لعبده الفاكهانى قال :

— يا أستاذ شجرة فلوسك موجودة . أرتفعت أسعار البناء بجنون واحتاج مائتى جنيه .

— ....

— يا أستاذ شجرة أنت موظف فى شركة بناء السفن الكبيرة وتستطيع أقتراض المبلغ منها .

تركته ولم أذهب الى المقهى . اشتريت منه كيلو برتقال حادق أعطيته لشحاذ فى الطريق . الساعة لم تتجاوز السادسة مساء ووجدت أمى نائمة . سمعت صوت الدجاج ففكرت أقدم اليه طعاما . لم أفعل ذلك من قبل . ما الذى نفرنى من هذا البيت الوادع ؟ . ما الذى أثارنى وكان كل

شىء راسخا فى مكانه النظيم ؟ .

استلقيت فوق سريرى مرهقا ووجدتنى اتذكر مدرس اللغة العربية القديم ، هادىء الملامح ذا الوجه الحزين فى مدرسة التين الثانوية . الحياة أكبر من أن تقف أمام أى حزن أو قلق . كان يقول دائما . كل ما عليك اذا أصابك شىء من ذلك أن تمسك بورقة وقلم وتكتب رسالة الى من ضايقك أو ضايقته ، تعتب عليه أو تستغفره ، بعد ذلك لن تكون فى حاجة لإرسال الرسالة . ستهدأ نفسك وتمزقها . قال أنه كثيرا ما يفعل ذلك . هذه هى طريقته الوحيدة الناجحة فى التخلص من همومه . إختفى هذا المدرس الشاب فجأة ولم يعرف أحد سر اختفائه ، وأذكر جيدا كيف تجهمت وجوه المدرسين لفترة طويلة وكيف ساد الصمت حجراتهم .

فى حالة من الأسى الدافق فكرت أن أكتب لأمى الأمية التى تنام بالغرفة الأخرى خطابا أطلب صفحها .

امسكت بورقة اسندتها على صحيفة على ركبتى وكتبت .

« سيدى رئيس الجمهورية بطل العبور والنصر .

بعد التحية

نحيط فخامتكم علما بأن عمال مصنع بناء السفن البحرية بالاسكندرية أبدوا رغبة حماسية فى السفر الى القاهرة للاحتفال معكم بعيد العمال لكن رئيس مجلس الإدارة رفض وقال أن ذلك سيعطل الإنتاج . أى إنتاج يمنعنا عن التعبير عن حبنا لكم » ..

« عامل صغير من أبناء الشركة »

***

فى فجر أول مايو كنت أقف فى ميدان محطة مصر أمام أوتوبيسين كبيرين . داعبتنى النسمة الباردة وأخذت أتطلع الى سيارات البيجو المصفوفة تنتظر ركابا الى القاهرة يقف حولها سائقون يدخنون فى صمت .

الأسطى زينهم الذى يصحبنى للمرة الثالثة يكمل نومه فوق مقود السيارة ، وكذلك يفعل الأسطى عباس الذى يخرج معى للمرة الثانية . بانت لى ساعة المحطة معطلة على الثانية عشرة ، وحركة خفيفة فى الساحة الأمامية . فى حديقة الميدان الواسعة ينام أكثر من شخص على المقاعد الخشبية وقد غطاه الخيش ، وأنا متوتر أدخن سيجارتى منكمشا أفكر فى الأسبوع الماضى وكيف لعبت فيه « الطاولة » بعنف ، وكيف أصابتنى هستيرية الضحك التى أدهشت حسين وماجد وعبد السلام . لم أشأ أن أخبرهم بشىء . لقد دخل الدكرورى حجرتى مضطربا شاحبا على شحوبه وقال :

— جهز نفسك للاحتفال بعيد العمال . رشحتك لأنك تعرف القاهرة وحلوان جيدا .

بذلت جهدا جبارا ألا تصعد إلى وجهى دهشة . لم تسبق لى زيارة القاهرة ولا حلوان ، ولا يجب أن يدرك الدكرورى أنى متلهف لمعرفة شىء قال كأنه يحدث نفسه أن أحد الجبناء من العمال أرسل خطابا الى رئيس الجمهورية يدعى فيه أن رئيس مجلس الشركة يمنع العمال من السفر للمشاركة فى الاحتفال بالرئيس فى عيدهم ! ، وأن الجبان كتب الخطاب بخط ركيك — كنت أعدت ما كتبته بيدى اليسرى على ورقة أخرى وأرسلت الخطاب من البوستة العمومية بالمشية — ولقد حولت رئاسة الجمهورية الخطاب الى الشركة وعليه تأشيرة « تلقينا هذه الرسالة » .

— اذن لم يطلبوا سفر أحد ؟

قلت فابتسم ساخرا ومضى وهو يتمنى لى رحلة ناجحة ولم أصدق .

***

وقفت أتأمل توافد العمال من أكثر من جهة يحمل كل منهم لفة صغيرة بها طعامه مع أننا سنصرف لهم وجبة جاهزة وزجاجة من الأسباتس النادرة . اشتدت الحركة فى الميدان ونور الصباح يغمر الأرض فيلمع فوقها

الندى ، وأشعر بنشوة ترتفع فى دمى وتتسع فى خلاياى ، وأسمع سائقى البيجو ينادون بصوت نشط « مصر . مصر . مصر . » وأفكر فى المائتى عامل الذين صُرف لكل منهم أربعة جنيهات كيف سأقتطع منها جنيهين فيتوفر معى أربعمائة أعطى لكل سائق مائة هذه المرة ، والقى بالمائتين فى وجه عبده الفاكهانى المجلور ذى العينين الخبيثتين . داخلنى شعور طيب بالأمن فأحببت هذه المدينة التى تنتقل من الشتاء الى الصيف كأنها تسبح فى الكون الساحر منفصلة عن الأرض ، فها هى السماء خالية من السحب السود ، وقطعان السحب البيضاء قليلة متناثرة كأنها أطفال تمرح فى الفضاء الوسيع . الحمد لك اللهم أنت ذا لا تتخلى عن ابنك « شجرة محمد على » صاحب الإسم الغريب الذى سبب له المضايقات كثيرة فى طفولته وصباه ، ولا يزال لا يألفه عبادك الضجرون . اللهم اتم فعلى خيراً ولا تخذلنى فتقتل أمى .

وانطلقنا على الطريق الزراعى الذى بدا مبتلا ينكشف لنا نديا لامعا بعد أن ودعته شابورة الليل وابتعدت على الجانبين فوق الحقول تغطيها بالبيض السابغ الذى يتكشف قليلا فى بؤر متناثرة عن أشجار قصيرة عميقة الإخضرار فيبدو وهو سابح بينها كجداول ماء سحرية .

كان على جانبى الطريق يمام كثير يتنافل فوق الأرض ويتقافز إلا أنى صرت أتطلع إلى ذؤابات شجر الكافوربين والكافور العالى أفتش عن أصدقاء الفلاح من الغربان والهداهد وأبى قردان ، وكنت أعرف أن الأسطى زينهم ينظر إلىّ كثيرا ويضحك . لقد قررنا أن نمضى اليوم فى حنطا . . . .

« لا أحد في « الدعيلة » لا يعرف الحاج عبد التواب . هو صاحب أكبر اسطول من عربات نقل أحجار البناء من الجبال . وهو رجل صالح يحج كل عام ولا تفوته العمرة في رجب ولا رمضان . رزقه الله بالولد بعد ثلاثين سنة وفي الفجر رَوَّع الناس بصراخ زوجه التي خرجت تجري في « شارع الجامع » حافية تقفز كثيرا في الهواء . لقد تعود الحاج عبد التواب منذ رُزق بالغلام أن يمضي معظم الليل يسبح بأسماء الله . تلك الليلة ظل يردد يالطيف يالطيف بالطيف . يلطف في الأداء حينا ويندفع فيه كثيرا ولم يسمع قط تحذير زوجه . اللطيف من الأسماء ذات الأثر الكوني السريع . هكذا علّق المتفقهون في الدين بعد الحادث . والذي حدث هو أن سقف الغرفة انشق إلى نصفين اندفع من بينهما طائر ضخم الجناحين أبيض سابغ غمر الغرفة بضوء أزرق يخطف الأبصار وحمل الطفل الى صدره وضم عليه ساقيه وارتفع من بين السقف المفلوق يشق الفضاء الى السماء السابعة حيث عرش الله »

« ٣ »

اليوم هو الثامن عشر من يونيو . يوم باهت بلا احتفالات ولا زينات ولا خطاب لمسؤول ، يوم غلب عليه الثالث والعشرين من ديسمبر حينا طويلا ، وجاء الخامس من يونيو ليندفع بهما وبجميع الأيام الى الظلام . الآن

السادس من اكتوبر هو المعلّى . وللمرة المائة وربما اكثر لم أستطع أن أمنع نفسي عن النظر الى الغرف الأربعة الواسعة ، والصالة الفسيحة ، والجدران المدهونة بالزيت الفضي ، والأرضية المفروشة بالقيشانى البيج ، والحمام الواسع الذى يرتفع فيه القيشانى الوردى الى منتصفه ، والذى يلمع السيراميك على أرضيته ، والبانيو الكبير ، والدش المتحرك .. إننى ازداد طولا ...

سلمنى عبده الفاكهانى الشقة بعد أن سوّد الدنيا فى وجهى . « لم تؤاخذنى أحتاج مائتى جنيه أخرى » . لم يكن مضى أسبوع على تسلمه المائتى جنيه الأولى . صرخت وكان المشهد مضحكا . أنا الطويل أحرك كفىّ مفتوحتين بعصبية أمام وجهه مباشرة ، وبين رأسه ورأسى مسافة نصف متر . تركنى وجلس بالمحل بينا أدور بين الفاكهة والخضر الذابلة مسعورا أود لو رفعتها وكومتها فوقه فخنقته .

— أنا لا أتعجلك . الشقة يمكن أن تنتظرك سنة .

كدت أقول أن أمى ستموت لو عرفت بما يحدث . بدا لى يدرك ذلك . يبتسم كقرد وأنا أكاد أنفجر مبعثرا فى الفضاء ، وصوتى لم أستطع اطلاقه كى لا ينتشر الخبر . لا أعرف كيف صار شكل وجهى وعينىّ وما الذى دفعه للقول .

— اكتب لى بالمبلغ إيصال أمانة ، أستطيع اقتراضهم من أى تاجر لحسابك .

وافقت . أوافق أو أقتله ولا وسط . سلمنى مفاتيح الشقة قبل الموعد وبارك لى اللعين . فكرت أن أستعين بحسنين وماجد وعبد السلام لنقل الأثاث . أستأجرت عربة نصف نقل كومته كله فوقها فى منتصف

الليل . سمعت أمى تقول « بسم الله » وهى تدخل الشقة بقدمها اليمنى ، ولم تنس أن تنصحنى بذلك . قلت « الحمد الله » ستسعد أمى بالشقة » . بسرعة وزعت الأثاث القديم فى حجرتين . بدت لى الشقة تستوعب أثاث محلات شوارع العطارين وتوفيق وصلاح سالم وفؤاد . أعرفها كلها الآن ولم تلفت انتباهى مرة من قبل . أنفقت أسبوعا أتفقدها وأنا أعرف أنه ليس فى قدرتى شراء شىء منها . لقد غرس فى رئيس مجلس الإدارة الأمل حين دعانى بعد أيام قليلة من عيد العمال وقال وقد نهض يستقبلنى من خلف مكتبه طويلا عريضا أبيض الوجه تنسكب النعمة من وجنتيه مشربة بالحمرة :

— لقد شرفتنا ياشجرة .

ولولا أن الدكرورى كان يقف جوار المكتب مكسوا بالفرح لما صدقت .

— لقد شرفتنا بحق .

وأطلعنى على خطاب شكر له وللعاملين بالشركة الذين ساهموا فى الأحتفال بعيد العمال فى حلوان .

— ستصبح مشهوراً ياشجرة . الخطاب من رئاسة الجمهورية .

قال وهو ينظر إلىّ ، ولابد أنه فكر أن صمتى من أثر المفاجأة السارة الكبيرة ، وأمر لى بعلاوة استثنائية اغتبط لها وجه الدكرورى حتى كاد « يبك » دماً وأنا واقف أفكر كيف تجرى الأمور فى هذا البلد ...

***

خرجت إلى الشاطىء فوجدت عددا غير قليل . توقعت مقابلة ماجد وحسنين وعبد السلام فلم يأتوا . جلست وحدى بكازينو بيسو . وجوه

أكثر الجالسين أليفة لكن لا صلة تربطني بأحد منهم . الوقت ظهر وكنت أكلت سمكتين من البلطي الذى شويته بنفسى . قالت أمى أنها لن تأكل قبل العصر ، وظلت جالسة بالشرفة تتطلع الى البحر . أخذت أتابع الأطفال المرحين فى المياه وعلى الشاطىء ، والفتيات الصغيرات يتهادين وقد عانقت أيديهن خصور بعضهن ، وراقبت العائلات الملتفة حول أصناف الطعام تحت الشماسى ، وبالكابينهات مفتوحة الجوانب . الشمس مبهرة وكل شىء حولى ساطع يسبح فى أمواج الضوء وأمى ترفض خلع ثياب الحداد حتى الآن . تشيع فى البيت صمتا مستبدا وأحيانا أخاف . اللون الفضى للجدران يجعل ثيابها السوداء أشد قتامة ، وضوء الكهرباء هنا أكثر قوة ، وبالأمس قالت أنها سمعت ضجة فى الشقة المقابلة فخرجت وطرقت بابها . فتح لها شاب هنأته بالشقة الجديدة فضحك وقال أنه النقاش الذى يدهن الحيطان ، وأن شقق العمارة جميعها خالية لأن مستأجريها يعملون بالدول العربية ، وسألها متى وصلنا من السعودية ؟ ! . ثم سألها ما إذا كان أعجبها دهان شقتنا فقالت الحمد لله .

قلت :

— هل يضايقك هذا الوضع ؟ . لن أخرج كثيرا الى المقهى بعد الآن .

قالت أنها مبسوطة ، وأنها بالنهار تراقب حركة الأولاد على الشاطىء القريب ، والذين يصطادون السمك فوق الصخور تحت العمارة ، والسفن الراحلة فى عمق البحر . وابتسمت وقالت أنها لأول مرة فى حياتها ترى سفينة ، وسألتنى لماذا هى كبيرة وبيضاء ؟

***

هل تمنى رجل فى هذا العالم أن يكون امرأة ؟ .. أنا . لو ولدت بنتا ربما آنست وحدة أمى . لن تنسى أبدا أبى « محمد على شجرة » الطيب الذى

لم يكن يبتعد كثيرا عن الأرض . تزوجها وهى فى الرابعة عشرة ، وصبر معها عشرين سنة حتى حملت بى . قالت « سمه أنت » قال « شجرة » . ضحكت . قال « شجرة محمد على . لقد غرسته من قديم الزمن ، سيعمر كالزيتون ويكون طويلا كالنخل » وقال أن جده سُمى بهذا الاسم لأنه ولد تحت شجرة كافور طيبة المسك ، وضحك ثم بكى ، لقد صار أبا بعد عشرين سنة ..

وصرت أنمو بسرعة مدهشة فى بيتنا القديم فى مساكن البلدية بكوم الشقافة . لم تعد أمى تحكى لى قصة اسمى فلم أعد أسألها عنه بل أدافع عنه أمام الأولاد ولا أشكو . أراقب نفسى كيف يزداد طولى فوق رؤوس العيال وكثيرا ما فكرت أننى حين أكبر أكثر سأكون شجرة بحق فتخرج منى فروع لها ورق وظلال تقف فوقها العصافير ويقذفها الأطفال بالأحجار . أضحك وأخاف .. فجأة أصبحت أطول من أبى فكنت أخجل من المشى معه أو مع أمى بينما ينظر هو الى ويقول « تماما كما تمنيت من الله » ويصلى . كنت أملأ الطرقات الواسعة صخبا ولعبا حول المساكن الشامخة ذات القرميد الأحمر القوى تتوسط خلاء واسعا تحيطه حدائق مفروشة بالنجيل الأخضر الزاهى حولها الطرق المعبدة بالأسفلت اللامع . لا غريب يمر هنا ولا سيارة . الأمهات يطلقننا منذ الصباح الباكر دون خوف فتمتد أبصارنا وتحتد وترتفع فى الفضاء . أى سحر أرسله الله الى تلك البقعة الوسيعة التى يرتاح فيها الضوء . لابد أنه خلقها لنفسه فنشر فيها السكينة والوداعة ، ولابد أنه كان يحبنا فتركها لنا . الشمس تغمرها بالصيف والشتاء . المطر يغسل شوارعها والملائكة ، بالقرب منها مصحة الأمراض الصدرية حقا لكننا لا نرى غير أشجار كافور وكازورينا عالية تحيط بأسوارها فلا نخاف . والأيام تمضى كما تمسح الأم رأس طفلها . كل شىء يوفره مرتب أبى الصغير ملاحظ العمال فى جراج البلدية بالحضرة . شارع باب الملوك هو الشارع التجارى ، ومن ميدان الساعة بكرموز تشترى أمى وجاراتها فضلات الأقمشة لهن ولأزواجهن ولنا يشترين

الجديد ، وإلى « البياصة » يقطعن رحلة ضاحكة لشراء السردين والسمك واللحم . الجمبرى نأكله كأنه فول سودانى . السردين يُملّح فى الصيف من أجل الشتاء . حول « الكابوريا » نلتف نحن الصغار نعابثها بعيدان الخشب . فى العيد الكبير يخرج الرجال إلى سوق الأغنام القريب فوق جبل الطوبجية لشراء الماعز والخراف ، وإلى « عامود السوارى » تتشح النساء بالسواد فى زيارة لموتاهم بالأعياد والأخمسة . أشم الآن رائحة الأزقة الضيقة التى كنا نعبرها لنصل إلى شارع باب الملوك . رائحة الماء بالصابون المدلوق فى الطرقات من النوافذ العالية . رائحة الأغنام الكثيفة فوق الجبل . أسمع ثرثرة السمسار الأعور الذى قال أبى عنه أنه فى الصباح الباكر وقبل أن يخرج إلى السوق يقسم بالله العظيم أن لايحلف أى يمين صادق طول النهار ! .. « هكذا كل السماسرة يإولدى حلفانهم الصادق الوحيد على الكذب » ، وأرى زحام « البياصة » الملىء بالضحك البذىء والشجار البرىء ، والنساء يضحكن وبائعو اللحم فوق عربات اليد يشيرون اليهن « بالخاصى » . إلا أن المكان كله اضطرب . تحول الفضاء الواسع الى مركز تدريب على ضرب النار . تفرقت فيه المتاريس والمدافع المضادة للطائرات . دخلت البيت ضاحكا والقيت بحقيبتى الجلدية فوق السرير وهتفت « أعطونا أجازة علشان إيدن » . قالت أمى « يقطع إيدن وسنينه » . وضبطتنى مع كوثر أخت هانى . لم أكن صغيراً . كنت فى العاشرة وأقبلها خلف الباب . كوثر تنشر عطرا طيباً تحرص أمها عليه وشعرها الأصفر متروك بحرية خلف ظهرها ووجهها الأبيض أحمر نضير وتدخل شقتنا كثيراً . الأطفال جميعا يدخلون أى شقة لأى أسرة . أبواب الشقق دائما مفتوحة طول النهار نخرج منها وندخلها أيضا قططا ، وأنا أكثر الاطفال دخولا بترحيب فأنا أسمر ووالداى أبيضان . وجدت نفسى أقترب من كوثر أشم عطرها ولا أتراجع . صفعتنى أمى لأول وآخر مرة أذكرها ، أنا ابنها الوحيد ، وطردتنى فنزلت اتفرج على العساكر الذين لا يبتعدون عن المدافع ولا تنزل عيونهم عن السماء فى انتظار الطائرات

القادمة فوق السحب . ما كاد المكان يعود الى خلائه وزهوه حتى عدنا نلعب بذكريات جديدة . كنا شجعانا نلتف حول الجنود وهم يطلقون نيران المدافع على الطائرات التى تبدو كالنجوم ، وكرماء نقدم لهم الأطعمة من بيوتنا ، لكن التجيل مُحُل ، وبانت الحدائق جرداء فى أكثر من موضع . لم يعد لون الاسفلت أسود تنزلق فوقه أشعة الشمس . أقبلت السنون لها مذاق راكد ، نكبر فتضيق بنا الطرقات . وسعل أبى وقال :

ــ دائما كنت أنظر الى المصحة . أدركت الآن السبب .

دقت أمى صدرها .

ــ عنقى يلتوى غصبا اليها .

قبعت فى ركن تبكى ، وأدركت أنا لأول مرة أن المصحة ليست أشجار كافور وكازورين وانما لها باب .

ــ كم ادخرنا ؟

رأيتها تخرج من عامود السرير النحاس كيسا طويلا من القماش ورأيته ينظر إلىّ . هذه الحمى الغريبة التى عاودتنى مرتين قبل امتحانات الثانوية العامة ولم تتركنى إلا بعد الامتحانات . لم أكن خائبا رغم رحلات السينما مع هانى وراشد . هانى فى الكلية الحربية وراشد فى كلية الطب وأنا أذاكر للمرة الثالثة دروسا حفظتها وأخاف هجوم الحمى .

مر أسبوع اشترى أبى خلاله قطعة أرض مائة متر . تحدث عن « الدخيلة » وعن الجبل الذى يشترى فيه الناس أرضا رخيصة . « إذا مت ستخرجون من المسكن » . حَسَمَ الأمر . كنت سمعت عن الدخيلة من قبل ولم أرها . وصلت إلى منتصف الطريق بينها وبين المكس حيث يوجد « معسكر الفتوة » الذى يذهب إليه طلاب الثانوى مرة كل عام للتدريب على ضرب النار . فى اليوم التالى لشرائه الأرض أجلت الامتحانات . ربضت فوق الاسكندرية طبقة من الحر البليد ، ومعه غبار خماسينى كاسح . لم تتغير معالم المكان لأنها كانت تغو

ندرى . انتشرت أكوام القمامة الصغيرة . تحطمت مقاعد الحدائق واختفى أكثرها . وسقطت أوراق الشجر حول المصحة وتكسرت فروعها فبانت نوافذها ونظرات المرضى التائهة . بدا أن قبضة سوداء تمسك بقفل الدنيا ، وأن مارداً سيدق عظام البشر . إنتشر الصراخ فى الطرقات . هرولت الروح شاردة فى الشوارع تتبعثر فى أقدامها . لطمت النساء خدودهن حتى كسرن أسنانهن وقبع الأطفال يبكون فى الأركان المظلمة لقد تنحى جمال عبد الناصر ودخل اليهود البلد ..

إستمعنا بحزن إلى القصص عن الجنود العائدين حفاة فى الشوارع ممزقى الثياب هاربين من الموت ، عن الفارين من مدن القناة ، والجثث التى تدفن بالليل « بعامود السوارى » قادمة من المستشفيات البعيدة . بدا أن الناس كرهت بعضها فأغلقت الأبواب مع المغيب ، وتسيد الظلام الأرض والفضاء . نجحت حقا فى الثانوية العامة لكن بمجموع لا يؤهلنى لأى جامعة . لم أحزن . لم تعد بى رغبة فى العلم . وجدت عملا فى مصنع بناء السفن الجديد . قلت لأبى سأكمل بناء البيت . لابد أنه بعد أن انتقل منا إلى الجبل كرهه فلم ينتظرنى . كرهت المنطقة كلها لكن أين أذهب ؟ إكتشفت أن الأيام طبيب بارد تمر غير آبهة بشىء . مع مرورها ازداد الزحام ، وكثر الأطفال ، وانتشروا فى الأزقة النتنة يلعبون ، وأدركت أن الجمال فى الأشياء عادة نألفها ، وبحكم هذه العادة أيضا قد نفقد الإحساس بما حولنا . أنا لم أكن أكره الجبل ولا أحس به . حتى « معسكر الفتوة » الذى كنت أتطلع إليه كل يوم فى طريق ذهابى وعودتى من العمل ، وأتذكر كيف تدربت فيه على ضرب النار لأول مرة ، وكيف وضعت منديلا أمام كتفى تحت القميص لأمتص ارتداد البندقية الموزر ، هذا المعسكر لم أعد أنظر اليه ، ولم يعد علامة بارزة فى الطريق الخالى . لم أكن أقصد النظر اليه فى البداية ولم أقصد التغافل عنه ، ولا أدرى ما الذى جعلنى أفعلها أمس فأجد اللافتة التى فوق بابه قد أزيلت ووضعت أخرى تعلن أنه أصبح موقعا لقوات الأمن المركزى .. ظننت أمى مثلى ولم أدرك إلا

تأخرا جدا أنها مثل أبى . أخلصت لها الرعاية ولا فائدة . كذب الذى قال أن المرأة تنسى زوجها بأولادها . ها هى لا تنسى « محمد على شجرة » الذى خذلنى يوم أردت إدخال البهجة الى صدره الدامى ، وها هى مثله تخذلنى وترحل مع السفن البيضاء .. لابد أننى الذى قتلتها . أخذتها من جهامة الجبل الى الفضاء الأبيض الرائق ، ولما لم تجد بالعمارة سكانا ، ولا استطاعت النزول أو الصعود لارتفاع هذه الشقة اللعينة ، لحقت بالفضاء الأبيض الرائق ... لكنها أمى وليست أبى وما كان عليها أن تتركنى وسط الشقة اللامعة صلدة الجدران . أى امرأة تضىء الآن فضاء هذا البيت الجهم ؟ . وكيف أجدها ؟ .

« فياض العامل فى خطة تحضير الأكسجين بشركة بناء السفن أصبح مشهورا فى الاسكندرية الآن . صعد بالليل احد أبراج الإنارة التى ترتفع لثلاثين مترا ولم ينزل ، بالنهار أخذ يؤذن ويكرر الآذان ، فصار العمال يتركون ورشهم ويذهبون للفرجة عليه . جاء رجال الأمن ونادوه فلم يستجب . صعد اليه أحدهم فاكتشفوا أن معه عصا غليظة ولا سبيل للوصول اليه . حضر رئيس مجلس الإدارة فرفض نداءه ... تركوه فظل حتى اليوم الثانى . أحضروا زوجته وأطفاله الثلاثة وأعطوهم ميكروفون ينادونه به فلم يهتم . زوجته جميلة شقراء فى ثياب مهلهلة أيقظت شفقة المجتمعين ثم شبقهم . أطلقوا حوله الرصاص فلم يهتز . تركوه لليوم الثالث وتركوا زوجته وأطفاله ينامون تحت البرج فلم ينزل . حضر رجال البوليس من الجمرك ورجال الإطفاء والإنقاذ وصعدوا إليه من كل ناحية فأخرج سكينا من جيبه قطع بها رقبته » .

« ٤ »

الاسكندرية آخر العام تكون توغلت فى الشتاء . تتجمع فوقها السحب السوداء الثقيلة وتهب عليها « نوّتان » متعاقبتان . ما يكاد ينتصف يناير حتى تكون المدينة قد شربت من المطر بحارا ، وتبدأ الشمس

خجلى فى الظهور . يشرق الجو شيئا فشيئا وتعمر الطرقات بالمارة ويحكى
الناس عن المطر الذى اخترق الأسقف ، الريح التى طيرت الزجاج
الانفلونزا التى دهمت الأسرة جميعا ، كميات القصب التى امتصوها
الليمون الذى شربوه ، العدس والبصل والبرتقال ، التيار الكهربى الذى
انقطع ، الرعد الذى أفزع الأطفال وسط الليل ، البرق الذى اخترق
الشيش والزجاج ، الرجل السافل الذى طرد زوجته فى البرد والظلام والمطر
والقى لها بثيابها من النافذة ، والطفلة التى وقفت فى الشرفة فحملها الهواء
ومشى بها برفق فى فضاء الشارع حتى أنزلها الأرض بسلام . تظهر النسوة
فى الشرفات وفوق الأسطح يتعرضن للشمس أو ينشرن الغسيل ، ولا يبدو
أن هذه المدينة أظلمت واتصل ليلها بنهارها . طفل هى لا يكف عن
الصراخ عند الاستحمام وما تكاد أمه تطلقه من تحت الماء حتى ينطلق فى
البيت بالبهجة والمرح . إلا إنى وصلت زاحفا لهذا الشتاء . كرهت العام
السادس والسبعين هذا الذى اتصل بالعام السابع والستين واجتمع معه
علىّ . رقمان خسيسان تبادلا موقعيهما فاخذا أبى وأمى . بدالى موت أمى
عقابا سماويا لكن ماذا كنت أفعل . رُمْتُ خطوة الى الامام . هل فينا من
لم يرِ ذلك ؟

. فكرت كثيرا فى حسنين وماجد وعبد السلام الذين لم يترددوا علىّ .
زارونى مرة واحدة صباح وفاة أمى حيث ذهبت لعبد السلام يعاوننى
فأحضرهما بدوره . رغم عمق صداقتنا لم يدخل منا واحد بيت الآخر
نلتقى دائما بمقهى مُلقى على الطريق السريع . أصدقائى لا يحدثوننى إنما
هم يكرهون البيوت والجدران . ربما فينا بذرة الفرقة رغم مايبدو علينا من
انسجام .

اشتريت تليفزيون ست عشرة بوصة بالتقسيط بعد أن اقترضت راتب
شهرين من الشركة دفعتهما تقدمة . لم أشغل نفسى بدينى لعبده الفاكهانى
الذى واسانى فى أمى وقال انه لا يتعجله . لم أندم على اعتذارى عن عدم

الاشتراك فى استقبال الرئيس فى السادس والعشرين من يوليو اذ لم يكن
شهر مضى على موت أمى . قال الدكرورى وهو يعزينى أنه سيقوم
بالمهمة . خفت أن يطلب منه العمال أن يفعل ما أفعل فيعرف . حزن
الذى تَنَبّ خوفى وأنسانى . عرفت أنه أنجز المهمة فقلت ربما فعلها وصارت سرا
مثل سرى . الحقيقة أحببت الدكرورى هذا النحيل شاحب الوجه . جاءنى
يوم وفاة أمى ومعه تفويض أن تتحمل الشركة والنقابة كل المصروفات .

***

بالأمس خرجت الى المقهى رغم برودة الجو فوجدتهم . ضحك
حسنين وقال :
ــ قلت سيأتى .
ضحك ماجد وعبد السلام وهما يصافحانى بشدة .
ــ مضبوطين على ساعة سرية نحن .
أكمل حسنين بعد أن احتضننى . قلت :
ــ الحمد لله أنى تسلمت الشقة قبل رفع الأسعار وإلا طلب منى
الفاكهانى ماتتى جنية ثالثة .
ضحكنا . قال ماجد :
ــ الناس لا تتحدث إلا عن الزيادة الغريبة فى الأسعار وتكاد تتشاجر
مع اضواء .
سكتنا قليلا وقال عبد السلام :
ــ غريب أننا لم نلتق منذ فترة طويلة وأول حديثنا يكون عن أشياء
عامة . كنا نتكلم فى نفس الموضوع قبل وصول شجرة .
قال حسنين :
ــ هل هناك جديد لأى واحد منا ؟
ــ صحيح .
أجاب عبد السلام كأنه يتنهد ثم وجه كلامه إلىّ :

— سأخبرك بأمر أرجو ألا يزعجك .

وقال أنه منذ أيام سمع « المقدس يحيى » على محطة الأتوبيس يشرح لرجل كيف يحصل على النقود من الهواء ، فهو يشترى البيوت القديمة لحساب عبده الفاكهانى ، ومنها بيت اشتراه منذ عام فى الجبل بألف جنيه ، وباعه منذ أيام بثلاثة آلاف ، وأنه يفوز بعمولة كبيرة من هذه العمليات ، وما السجاد والحصر التى يدور بها فى الطرقات إلا ساتراً لا ينتظر منه نفعا

أمضيت ليلة مجنونة كدت فيها أحطم رأسى بيدى . قررت قتل الإثنين ، الفاكهانى الذى يبيع الفاكهة الحامضة ، والمقدس الذى ورث اللقب عن أبيه الذى لابد لم ير القدس قط ، ذلك القصير المربع السمين الأشقر أحمر الوجه والحاجبين قصير اللزاعين صغير الكفين كحشرة اشتريت نصف لتر براندى لأول مرة فى حياتى شربت نصفه ونمت ميتا

***

ذهبت إلى العمل متأخرا نصف ساعة . الإدارة تكاد تكون خالية الجميع يطلون من النوافذ .

— العمال يريدون الخروج .

— لماذا يمنعونهم ؟ خروجهم أفضل وإلا حطموا الشركة ..

صوت العمال يأتى هادرا من خلف السور العالى الذى يحيط بمواقع العمل يهتفون . ما كل هذا الغضب الذى يملأ الفضاء . انفتحت البوابات الرئيسية على مصاريعها . إندفع سيل العمال وجرى بعضهم لم الإدارة يخرجونا نشاركهم . مائة ألف عامل أو يزيد وأعرف من خبرتى بالملفات فى حجرتى أنهم عشرة آلاف . عشرات محمولون على الأكتاف تحت أحدهم يربط رأسه بعصابة بيضاء ويلوح عاليا بمنديل أبيض جنون . إنه يجذب خلفه وحوله أكبر كتلة من تجمع العمال ويتقدم المنس كلها .

— من هذا ؟

سألت مجاورى الذى رأيته سمينا بدرجة ملفتة للنظر فضحك مبتهجا كطفل .

— ألا تعرفه ؟ أنه سيد برشو .

— آه .

قلت أحاول إخفاء ابتسامتى وعجزى عن الفهم . وجدت نفسى يعتصرنى الضغط لأتقدم ناحية سيد برشو . لحظات وصار نهر العمال الغاضب يغرق شارع المكس . تعطلت حركة السيارات والترام ونزل من بها . فتحت نوافذ البيوت وأطلت منها نساء وفتيات وأطفال . إنهم يرددون الهتاف . وأنا أهتف خلف سيد برشو . لماذا فى هذا الوقت بالذات أدقق النظر فى وجوه النساء والفتيات . زهور بيضاء تطل من أشجار عالية . لا أسمع أصواتهن واضحة فهدير أصوات العمال يزحم الفضاء ، وأعرف أنهن يهتفن من حركة الأفواه وتلويح الأذرع . لابد أن الحكومة أخطأت بالفعل وهى ترفع أسعار هذا العدد الكبير من السلع . لا يمكن أن يكون الخطأ عند هذه الحشود الجيشة . لكن لماذا لا أشعر بالغيظ مثلهم ؟ لماذا لم يضايقنى ارتفاع الأسعار ولست غنيا ؟ هل لأنى أعزب ومقطوع من شجرة ؟ . أم لأن الأمور تجرى أمامى ولا أراها ؟ بركان يتفجر حولى وجبال تقع . بالطول بالعرض .. حنجيب الحكومة الأرض ... ماذا يفعل سيد برشو . مجلسنا الشعبى دا يبقى مين .. يبقى حرامى الفلاحين .. ماذا يقول سيد برشو . ياأمريكا لمى فلوسك .. بكرة الشعب العربى يدوسك .. الصهيونى فوق ترابى .. والمباحث على بابى .. سيد برشو لا يخاف . قولوا لنايم فى عابدين .. العمال بياتوا جعانين .. وأدقق النظر فى سيد برشو . خيال رائع . أسمر وشاحب . أمسكه بعينى وأرى فى وجهه عينى ذئب شرس . ثاقبتان عيناه حقا وخاطفتان لكنهما أيضا نديتان . دمع هذا الذى أراه أم سحابة حزن ؟ العمال يتناوبون حمله . ضئيل الجسم حتى لتحسبه صبيا فى الرابعة عشرة ... كل الهتافات تتفرع من

هتافه أو تبنى عليه . الزحف يتباطأ . شارع المكس الواسع يضيق بالفيضان . سيد برشو يشير بالتوقف . المسئولون يشيرون بعده . الجميع يقفون . يدخل هو وكتلة بشرية ضخمة من زقاق جانبى . أنا معهم . كل شىء يبدو لى مخططا ولا أصدق . نحن الآن أمام شركة « باتا » . هنا يعمل حسنين . هل أراه ؟ . عمال بناء السفن الأحرار ينادون عمال باتا الشرفاء . ماذا لو رأيته ؟ . ماذا لو رآنى ؟ أكثر عمال باتا من النساء والفتيات . أعرف ذلك . هاهن يتطلعن من النوافذ . يهتفن معنا . أنا لا أهتف الآن . أين حسنين ؟ ماذا يفعل مع هذه المئات من النساء ؟ لابد لا يرفع عينيه عن الأرض طول النهار . أبتسم . عاش نضال المرأة المصرية . سيد برشو مجنون . أهتف معه الآن . وددت لو ميزت صوتى بين الزئير الهادر . يخرج بعض المسئولين يتفاوضون مع سيد برشو . عاش نضال المرأة المصرية . يهتف ولا يتفاوض . أضحك فجأة لطولى وأنحنى لا أدرى لماذا الآن ، وفى هذا الموقف ، أننى جليفر فى بلاد الليليبوت . تنفتح الأبواب ويهدر سيل النساء والرجال . يختلط الحشد وأفكر أنا كيف أتفادى الاحتكاك بالفتيات فى هذا الزحام الضاغط . لو تلمح عيناى حسنين . مسيرتنا تلتف لتلحق بالأصل . مستحيل أن أرى حسنين . مستحيل أن يعرف أحد أحدا . يا الله . هل هذه مسيرتنا حقا . إمتدت للخلف حتى انقطاع النظر . انضم اليها عمال شركات الأسمنت والبترول والكيماويات والدباغة القادمون من المكس ووادى القمر والدخيلة . لابد أن القيامة قامت بالفعل . وطلبة مدرسة الورديان الثانوية وطالبات المعلمات وتلاميذ طاهر بك الاعدادية . نزحف وطولى يضايقنى فكم مرة أكاد أتعثر . أشعر بالهواء البارد فوقنا . ياحاكمنا بالمباحث .. كل الشعب بظلمك حاسس . اهتف خلف سيد برشو وأتطلع الى النوافذ العالية من جديد . نصل إلى كوبرى التاريخ فينكشف أن المسيرة الضخمة انتظمت وحدها . الرجال يشغلونها من الأمام . القيامة ستقوم الآن ! . عمال محالج ومكابس الأقطان يسدون الطرقات الجانبية . رجال

ونساء لا حصر لهم حفاة ممزقو الثياب على الكوبرى يصطف جنود الأمن المركزى بالعرض وخلف بعضهم يشكلون حائطا عميقا . يشرعون عصيهم الخيزرانية السميكة ، ويرفعون دروعهم أمامهم ، وبين أرجلهم وفوق الأرض صناديق عديدة لقنابل مسيلة للدموع . من خلفهم يأتينا أكثر من صوت للضباط يطلبون منا بالميكرفون التفرق والإنصراف حتى لا نتعرض للخطر . يبدو الأمر مضحكا . مسيرتنا تتوقف فعلا . هكذا أشار سيد برشو الذى لا يزال محمولا . يتحرك كأنه يرقص فوق حصان مدرب على الرقص . كأنه يسبح فوق موج متناغم الدفعات . الهواء يصير شديد البرودة يصفع وجوهنا قادما من اتساع الميناء على يسارنا . كشك السجائر القائم أول الكوبرى مغلق . وصوت راديو يتسرب منه . خمسة فى ستة بثلاثين يوم ، غايب عنى وغاب النوم . صوت شادية جميل . لابد أن صاحب الكشك أغلقه على عجل . هو يلبس آخر موضة واحنا نسكن عشرة فى أوضة . نهتف خلف سيد برشو . يطول الوقت . لا نعبر الكوبرى ولا يهاجمنا الجنود . موقف غريب حقا وسيد برشو يهتف يحيى رجال الأمن المركزى .

— ولد .

— من هو ؟

— سيد برشو . ألا تعرفه ؟

يتناثر الحوار خلفى ، وسيد برشو يتقدم ، ومحمد قنديل يغنى من الراديو المحبوس ياحلو صبح ياحلو طل ، وأنا مشدود الى سيد برشو ، وتنطلق فى وجوهنا القنابل ويتمدد الدخان الأزرق فيتبعثر الكثيرون فى أزقة كفر عشرى لكن الكتلة الرئيسية تظل متماسكة تزحف ويهتز الكوبرى تحتنا وتغوص فى أجسادنا الخيزرانات السميكة ونغوص بين الجنود والهواء البارد يشتد ولا أدرى كيف تطورت الأمور . هاجمنى جندى طويل ، ليس أطول منى لكن الخيزرانة المرفوعة فوق جعلته عملاقا ، نسرا منقضا من

فوق جبل ، وأتلقى الخيزرانة بيدى اليسرى وأمسك بها وأنحنى أحمله من بين فخذيه بيدى اليمنى فأجده خفيفا كريشة ، وربما لأنى جوار سور الكوبرى الحجرى العريض الأملس أجد نفسى ألقى به إلى ترعة المحمودية الراكدة المياه العفنة تحت الكوبرى وأسمع صوت جسمه يطش فى الماء . وكأننى اخترعت حلا . عندنا طاغ ولا حيلة للجنود إلا بالهرب ، فالعشرة منا يحملون الجندى الواحد ويلقون به الى الماء النتن فيرمح الجنود يختبئون فى شوارع مينا البصل ، ويندفع طوفاننا فى شارع السبع بنات ، ونبتعد عن الكوبرى القديم الذى لا أعرف كيف تحمل هذا كله .

بعيد أنا الآن عن سيد برشو أشق الحشود بكتفى وذراعى اليه . أى جنى هذا الذى لم يسقط ولم يتوقف عن الهتاف ؟ . طولى يجعلنى أرى المحلات مغلقة على الجانبين وليس بالشارع غيرترام واحدة مهجورة نعبرها فتحطم نوافذها وأسمع سيد برشو ينهى عن التخريب . صوته يتضح لى لأنى الآن قريب منه . المتظاهرون يحرقون قسم اللبان حين يروه محاطا بقوات الأمن وأمسك نفسى متلبسا من جديد بالنظر الى النوافذ العالية . نفس النساء الجميلات والفتيات ناضرات الوجوه لكن ينفتح أمامنا ميدان المنشية يقابلنا بهواء عريض ثلجى وحشود زاحفة من ميدان عرابى . طلبة الهندسة . الآداب . التجارة . الحقوق . الجامعة كلها . حوار يتناثر حولى . احنا الطلبة مع العمال .. ضد تحالف رأس المال . وأهتف خلف سيد برشو وأرى أضواء السعادة تجرى على الوجوه التى تشرئب تقرأ اللافتات المقبلة . يحيا نضال الطلبة مع العمال .. يحيا نضال الطلبة مع العمال لافتة تملأ الفضاء فى كل مكان وزئير جنونى كأنه الجحيم سيحرق كل شىء . زئير جنونى كأنما تتوسط رعدا وزلزالا . زئير جنونى سُخِطَت من فرط صعقته البنايات فوقفت جامدة . لا تفزعنا عربات الأمن المركزى القادمة فى اتجاه المرور الخاطىء من شارع توفيق ، ولا القادمة من شارع صلاح سالم أو شارع النصر أو الكورنيش أو التى فى أفواه الأزقة ، ولا العدد الهائل من الجنود الذى ينزل من السيارات يحاصرنا . هذا حصار كذاب فنحن نملك

الآن أرض وفضاء ميدانى عرابى والمنشية . نملأ الحدائق ونزحم الطرقات وهديرنا هو الذى يعصف بالهواء . يختل النظام التلقائى الذى صنعه شارع المكس ومن بعده شارع السبع بنات ولا أحد يميز الآن العمال من الطلبة ولا الشباب من الفتيات وأجد نفسى جوار فتاتين فأفكر أن ابتعد لكن أحداهما تنظر الى « ايه ده . انت طويل أوى كده ليه » . وتبتسم لى ولزميلتها ولا أعرف بم أجيب . ارتبك بحق . « ولاد الكلب بدأوا الهجوم » تقول وتنمر عيناها ولا أراها بعد ذلك إذ تدوس اقدام على اجساد وترتفع صيحات أسود وصرخات حمام ، وتطير فى الجو أحجار ويتمدد الدخان الازرق وتخترق أمطار حبات الرش المعدنية المنطلقة من بنادق الجنود ثيابا وخيما ، لكن الميدان ينجلى فى النهاية عنا كما كنا ، غاضبين فى فرح ، منتشين بالمغامرة والبرد . دم جديد طازج ينكسب فى عروق . صفير الهواء البارد فوق وحولى رفيف أعلام . أرى الجنود يفرون فى الأزقة تلاحقهم جماعات صغيرة منا فى وضع مثير للإشفاق . اتذكر الفتاة الغريبة فأبتسم . لا أعرف كيف احترق مبنى الإتحاد الإشتراكى القديم الذى عاد بورصة كأصله ، ولا كيف انقسمت المسيرة إلى طريقين : شارع الغرفة التجارية والكورنيش ، ولا الذى جعلنى على الكورنيش . لابد أنه سيد برشو الذى أمامى .

تقابلنا أرتال أخرى من الطلاب تلتحم بنا ولا أعرف الى أين نتجه . هواء البحر الصاخب محمل بالرذاذ ويحمل ذؤابات الموج يقذفنا بها فنجرى ضاحكين ويتمدد جيشنا الى الأمام . يحترق مطعم نصار ومصطفى درويش ومقهى النوفر واتينيوس والمونسينيور . من أين أتت كمية الحجارة التى قذفناها فوق الجنود المساكين ؟ كيف انصاعت لأيادينا بلاطات الأرصفة كأنها مصفوفة فى انتظارنا ؟ كيف صارت الساعة الرابعة وكيف نجوت من الدم والدخان فى محطة الرمل وأمام جامع ابراهيم وفى السلسلة والشاطبى . إننى اقترب وحيدا من محطة سيدى جابر . شردت عنهم أم شردوا عنى ؟ كنت معهم أم سرت نصف الطريق وحدى ؟ كيف اختفى

سيد يرشو عن عيني وتقطع الخيط بيني وبينه ؟ أذكر أني سمعت من يأمر بالعودة الى المنشية مرة أخرى . من يدعو للإعتصام بالكليات . لا أذكر أني فكرت فى أى من الدعوتين . إذن هى قدماى حملتانى بعيدا حولى الشوارع خالية من الناس والمركبات . أوتوبيس محترق فى شارع جمال عبد الناصر ، وترام محترق أمام المحطة .

أفكر الآن فى العودة . اتذكر أن هناك قطاراً يخرج فى المساء من « محطة مصر » الى العامرية يمر على محطة سيدى جابر ويدور خلف الاسكندرية الى محطة محرم بك ثم القبارى فالمكس مخترقا بعد ذلك الصحراء . ذلك شىء عرفته منذ سكنت بالدخيلة . هذا إذن طريقى اليوم ولا طريق غيره ، ومن المكس أمشى الى الدخيلة .

تقدمت الى المحطة متعبا . الساحة الواسعة أمامها خالية من السيارات والمنادين . المحطة نفسها خالية . لا مسافرون ولا عمال ولا حراس . نوافذ حديدية وأبواب حديدية وجدران جامدة انجليزية الطراز . جلست وحيدا على مقعد خشبى بارد تزيد نعومته من برودته . أدهشنى اجتياحى بفوران جنسى غريب . الآلاف التى تظاهرت اليوم لو كنت قائدهم فى مسيرة سلمية كم يتوفر لى من نقود ؟ مسحت المحطة بعينى وأنا أشعر بالبرد مختلفا عنه فى الصباح . نفاذ وتيارات هوائه أكاد أراها ثلجية اللون تتمدد فى هياج تطيّر الأوراق فوق العوارض والقضبان . الأرصفة الصلدة الطويلة الخالية ممتدة للمدى ... الأشجار القليلة عارية . رجل بعيد جدا يتبول لا أرى إلا ظهره أسود الثياب . عش فى الفضاء يثقل المكان بالظلام القادم مسرعا . هذا هو الشتاء بحق وهذا هو السفر . انكفأت واضعا رأسى المكدود بين يدى المرهقتين . مددت ساقى فى استرخاء مستسلما لتعب طاغ وجوع كاسح منتظرا قطارا قد لا يجىء . وأجهشت فى بكاء كأنه زئير ...

« عاد مدرس كان معارا الى الشارقة . برقيته لم تصل . فتح باب شقته بالمساء ودخل بهدوء ليفاجىء زوجته وطفليه بالسعادة . فتح باب غرفة نومه فوجد زوجته تحت رجل . نظرت إليه ونظر إليها . عاد بهدوء إلى الخلف . عرفت قدماه باب الشقة وهو يسير بظهره . خرج وهبط السلم بظهره أيضا . نزل الى الشارع بظهره ومشى فى الطريق بظهره وكل من يراه يوسع له فى ارتباك ، وطفلاه اللذان برزا من أحد الأزقة يتابعانه . ينظر اليهما وينظران اليه . يمد لهما يديه ويمدان ايديهما . لا يستطيع التوقف ولا يستطيع التقدم نحوهما وكلما أمسكا بيديه أفلتا منهما فلا يكفان عن البكاء . الاسكندرية كلها صارت تعرفه . يفسح له الناس الطرقات وتقف له إشارات المرور والسيارات .. اختفى الرجل وطفلاه وأوشكت الناس تنساه لكنى خُلِّمت به وقد علق بالفضاء يدور حول الأرض ، وطفليه يدوران حول القمر . » ..

« ٥ »

فى الشتاء حين يعربد بالليل الهواء فيطيّر الأوراق المهملة فى الطرقات ، ويصرخ فى الأزقة ، وتنطفىء الأنوار فلا تميز بسهولة بين اليابس والماء ، وتصبح المقهى باردة رطبة ، نمتنع عن الخروج دون اتفاق سابق .

فى الليالى الدافئة نتقابل دون موعد أيضا . فى وقت متقارب نخرج . نتقدم فى الشوارع الجانبية على مهل جوار الجدران القديمة التى حال لونها . يحدث أن يلقى الواحد منا الآخر فجأة فيتبادلان الابتسام . يتصافحان . يضحكان . يمشيان الى المقهى معا . ألم يقل حسنين أننا مضبوطون على ساعة سرية . تلك قاعدة صار القدر يرتبها ، ولا يخيب اللقاء فى الاستثناء .

الليلة لا نلعب الطاولة . التقينا مبكرين . جلسنا متجاورين . تعلقت عيوننا بجهاز التلفزيون المعلّق على رف عال على جدار دورة المياه الصغيرة .

— ستبدأ المسيرات ياشجرة .

قال حسنين . قلت :

— سأجد طريقة للإعتذار .

— لماذا لا تشارك حقا ، هل تتصور أن ما حدث لك أول العام سيتكرر ؟

قال عبد السلام مشيرا الى واقعة القبض على بعد مظاهرات يناير الماضى . ذلك الحادث الذى أربكنى كثيرا ، والذى لم ينقذنى منه غير شهادة رئيس مجلس الإدارة الذى قال :

— نعم شجرة متعهد مظاهرات كما بلغكم ، لكن مظاهرات سلمية مما تقوم به الشركة لاستقبال سيادة الرئيس وضيوفه . شجرة أكفأ من يؤدى هذه المهمة ونحن نعتمد عليه دائما .

كدت أصرخ أنى الذى حرّضت المتظاهرين جميعا . حطمت أعمدة النور . خلعت بلاط الأرصفة ، حرقت المواصلات والملاهى واقسام البوليس . إننى لا أقوم بالمظاهرات السلمية كما يقول إنما أنصب وأحتال ولم يحدث أن أكملت واحدة منها .

لقد قبضوا علىّ فى الفجر بعدد من الجنود امتد على السلم من الشارع

حتى السطح ولا أعرف كيف فتحوا باب العمارة التى لا يسكنها غيرى والذى أحرص على إغلاقه بالمفتاح كل مساء . كظمت غيظى وجنونى . أطلقوا سراحى فى الفجر أيضا . دارت عيناى فى حى الفراعنة الهادىء الذى لم أمش فيه من قبل . هل يعرف أحد أنه فى هذا الحى الجميل تقع مباحث أمن الدولة . أشجار مهذبة تلمع أوراقها الرصاصية . أشجار عارية . أشجار سامقة الارتفاع . شوارع مغسولة بالمطر وعمال البلدية . بيوت محاطة بالأسيجة والحدائق . البرد إبر والسماء تهطل بنقط رفيعة من المطر . أسرعت واضعا يدىّ فى جيبى بنطلونى . لا أحب البدل . لا اعتقد أنى سأرتدى بدلة إلا اذا تزوجت ، ولا اعتقد أنى سأرتديها بعد يوم الزفاف . دفنت وجهى ما استطعت فى صدرى وبين عضدى . رأيت الاسكندرية فى نومها لأول مرة . مستريحة هذه المدينة تتنهد فى طمأنينة ولا تدرى بشىء

اعتذرت فى الأيام التالية عن عدم المشاركة فى مسيرات التأييد العارمة التى خرجت من المحافظات الى قصر عابدين . ذهب الدكرورى بالعمال . كانت المرة الثانية بعد السادس والعشرين من يوليو الماضى . قال أنها فرصة أؤكد فيها كلام رئيس مجلس الإدارة عنى . ادركت أنه يؤدى المهمة كاملة ، وأن سرى لم يزل فى البئر . قلت بعد أن يمر عام على وفاة أمى . بدا محترما لرغبتى . فى أول مايو تقرر أن يذهب أعضاء النقابة فقط للاحتفال بعيد العمال فى القاهرة . فى السادس والعشرين من يوليو جاء الرئيس إلى الاسكندرية بالهليكوبتر فألغيت الاحتفالات . كأنهم يعرفون أن شهيتى ليست مفتوحة . الحقيقة كنت مذبوحا . تذكرت قرارى بقتل عبده الفاكهانى والمقدس يحيى فشملنى خوف غريب . صرت أريد الابتعاد عن الناس جميعا . بل ذهبت الى عبده الفاكهانى أرجوه أن يعطينى مهلة الى نهاية العام فوافق على الفور . بدا هو أيضا خائفا منى لا أدرى لماذا .

قابلت المقدس يحيى فانحرفت اليه اصافحه فشرد عن الطريق . ناديته

وصافحته وربّت على كتفه وكان وجهه الأحمر صار أصفر فشجعته وقلت سأحتاج يوما لبعض السجاد فقال « رهن إشارتك » ..

***

— هذا مطار القدس .

قال حسنين وقد انتقل الإرسال الى اذاعة خارجية .

أشعل ماجد سيجارة .

شحب وجه عبد السلام .

— بيجين .

— ديان .

— وجولدا .. بص شكلها .

الحوار بالمقهى يطلقه الغرباء . انفتح باب الطائرة فحط علينا الصمت . السادات يتقدم يصافح زعماء اسرائيل بابتسامة عريضة . يداعب جولدا ويشد على يد ديان كثيرا . أسنانه لامعة وشاربه مهذب . فكرت فى الشارع الواسع خلفنا كيف صار خاليا وكيف لا نسمع أصواتا لسكان الجبل . صمت ووحشة يملآن الفضاء خلفى مع الظلام الهابط مسرعا . جالس أنا على حافة جرف يطل على واد سحيق . دفعة واحدة الى الخلف فاسقط ميتا .

— لحن خبيث ناعم كأنه أنين العاجز المقهور

قال عبد السلام معلقا على السلام القومى الإسرائيلى . نهض واضعا يديه فى جيبى بنطلونه . دار حولنا مطرقا وانقطع التيار الكهربى . ابتسم حسنين وقال ماجد « أحسن » وشفتاه ترتعشان .

لم نترك المقهى . على ضوء الشموع التى أشعلها محسن الجرسون قليل

الكلام جلسنا .

— كيف يفعل ذلك ؟

تساءل ماجد كأنه يحدث نفسه . خلع نظارته وأخذ يمسحها بمنديل . أردت أن أحول الجد الى هزل . قلت لحسنين :

— ما هو أجهز عليك بشوار .

إبتسم واحمر وجهه . لم يمد الابتسامة الى غايتها . لم يضحك ولم يضحك ماجد . عبد السلام ابتعد عنا يمشى مهلا فى ظلام الشارع . بخ كلامى . أخوض فى السياسة ولا أدرى . لقد تكلم حسنين عن نفسه مرة فقال أنه موظف يحتاج لدفعة هائلة ليتزوج . فشل مبكرا فى التعليم إلا أنه استطاع الحصول على الثانوية العامة بعد سن الثلاثين بنظام المنازل وانتسب إلى كلية الآداب قسم تاريخ وليس لديه الوقت الكافى لحفظ الحوادث والحروب والدسائس التى يبدو أن البشرية لم تكن تفعل غيرها ، فهو يمضى عامين فى العام الدراسى الواحد . وهو أيضا مصاب بربو خفيف . خفيف لكنه ربو . ضحك من هذا الوضع العجيب وقال أنه الوحيد تقريبا فى هذا البلد الذى يكافح على ثلاث جبهات ، الفقر ، والجهل ، والمرض ، واندفع بالضحك وهو يقول أنه مثل ثورة يوليو .. فى ذلك الوقت طال ضحكنا . لم يبد أنه خجلان وظل وجهه مشرقا .

طلبت من محسن الجرسون أن يحضر لنا الطاولة . خفت أن يخذلنى حسنين وماجد ، لكنهما أقبلا على اللعب . أتى عبد السلام من الشارع المظلم « السلام عليكم » . قال وصافحنا وجلس ونحن ننظر كل منا للآخر . لقد كان عبد السلام معنا منذ قليل . هو نفسه أدرك ذلك . لعله أدرك أننا صافحناه فى ذهول ، لذلك جلس صامتا . بعد قليل لعب معنا . عاد التيار الكهربى والمقهى خالية إلا منا . لم يشغل محسن الجرسون التلفزيون ولم نطلب . تحدثنا عن الصيف وكيف مضى دون أن نلتقى . سألنا ماجد عن أحوال الصيدلية الجديدة التى استأجرها . حقق ماجد

حلمه ولم يعد يعمل عند أحد . قال أن إعداد الصيدلية هو الذى شغله عنا . الآن صار يجد وقتا بعد أن وجد صيدليا يساعده . وحدثنا عبد السلام عن صحة والده التى تدهورت كثيرا بسبب البروستاتا . قال أنه يتقدم فى الشفاء لكن للسن أحكاما . وقال حسنين لى « انت طبعا لا زلت تفكر فى خطة لقتل عبده الفاكهانى والمقدس يحيى » . ضحكنا . أجل ضحكنا بقوة وسألناه لماذا لم يكن يأتى هو أيضا . قال « أنتم لم تأتوا » .

***

ـــ طبعا انت حزين لأنك على الأقل حاربت مرتين ؟

قلت لعبد السلام فى الطريق . كنا تركنا المقهى وأوشك الليل أن ينتصف . تنبهنا متأخرين أن حسنين تخلف عنا ويقف وحده ينتظر الأوتوبيس تحت المظلة . بعد قليل دخل ماجد بيته المطل على شارع الجامع . أصبحت كالعادة وحدى مع عبد السلام . نسكن فى شارع واحد .. هو فى منتصفه وأنا فى نهايته حيث يطل على البحر .

سادنا صمت قطعه أنين مكتوم صادر من قسم البوليس . أرعشتنى نسمة نوفمبر . رأيت المحلات مغلقة على الجانبين .

ـــ لا .

مشينا نبتعد أحيانا عن بعضنا الى الجانبين ثم نعود فنتجاور .

ـــ ماذا تعرف عن الفيللا الموجودة بشارعنا والتى بها شجر الياسمين ؟

سألته فجأة . لا أعرف لماذا اخترت هذا الوقت .

ـــ هل شاهدت بها أحدا ؟

أدركت أنه يعرف ما أود الحديث فيه .

ـــ كل يوم فى الصباح الباكر أرى وجها جميلا يطل من النافذة .

وجها صبوحا كأنه النور نفسه . وأحيانا يحدث ذلك بالليل . اليوم أشارت لى بيدها .

عدنا الى الصمت . الطريق صار مليئا بالحفر فجأة وأكاد أتعثر أكثر من مرة .

ـــ ابتعد عن بيت الياسمين هذا .

لم أفهم . لم أشأ أسأله لماذا . الحقيقة أريد أن أسأله . أكاد . لقد شدتنى رائحة الياسمين منذ انتقالى من الجنوب الى الشمال . الفيللا الرابضة خلف السور العالى المكلل بالزهور البيضاء والصفراء بدت لى شيئا سحريا وغامضا . نوافذها العالية الناثرية . جدرانها المستديرة وأعمدتها الرخامية وكل شيء فيها يبدو منفذا على مهل فى راحة واتساع . الوجه المشرق الذى أراه بالصبح والليل يحفر خيالى وفضولى . يكاد يخلعنى عن الأرض . يحرك الرغبة المدفونة فى الزواج ولا أستطيع التصريح لعبد السلام .

ـــ بيت الياسمين هذا أقدم من عمرى وعمرك . أبى وأمى وكل الناس تعرف ذلك . ضربت كثيرا فى طفولتى بسبب تسلقى السور وقطفى للياسمين . صاحب البيت وزوجته يحبان العزلة فلا علاقة لهما بأحد . ينجبان الفتيات فقط ، وبناتهما أجمل خلق الله ، هذه حقيقة . وأسعد الناس من فاز بمجرد الرؤية . ذلك يحدث بالصدفة ، ولا أصدق أنك ترى وجه الفتاة كل يوم . الرجل وزوجته لا يسمحان لبناتهما بالخروج الى الشارع أو المدرسة أو العمل أو الانتظار خلف النوافذ . قد يسعدك الحظ مرة فى الصباح الباكر جدا ، عند الفجر ، قبل أن يستيقظ الرجل وزوجته ، لكن هذا نادر بالليل حيث يلف الظلام الحديقة وتغلق النوافذ العالية بالشيش الغليظ صيفا وشتاء . لقد نسيت أن فى شارعنا هذا البيت ولا أشم رائحة الزهر . اشتقت له مرة واحدة وأنا محاصر فى الجيش الثالث . هل تصدق ؟ كان فى الجو رائحة الدخان والبارود وأنا أشم

للحظة كالنور الخاطف رائحة الياسمين . أى والله . لكنها لم تتكرر . بعد أن عدت راقبت النوافذ لفترة . لم يسعدنى الحظ مثلك مع أنه لم يعد بالبيت غير بنت واحدة.

— كيف عرفت كل ذلك ؟

سألته مبهور الأنفاس . سألته على الفور كأنى كنت أنتظر آخر كلمة يقولها .

قال :

— الأسرار معروفة رغم العزلة . الدخيلة كلها تعرف سر هذا البيت . ربما تعرف الاسكندرية أيضا . هناك حركة تتكرر كل سنوات . تأتى إحدى البنات فجأة من الخارج راكبة تاكسى مع رجل فى وضح النهار وتنزل حاملة طفلا . نفس التاكسى لا يتغير . نفس السائق . تتلفت حواليها لحظات . قبل أن تنفتح لها البوابة الحديدية تتطلع الى النوافذ المحيطة والشرفات كأنها تعلن حضورها . يعرف الناس أن إحدى الفتيات تزوجت منذ عام .

— عائلة غريبة !

قلت كأنى أتنهد .

— لا أحد يعرف الخطأ من الصواب .

قال وتوقف ممسكا يدى . فى اللحظة التى فكرت فيها أن لعبد السلام أسراره وأننى لم أعرفه جيدا بعد رأيت قطيعا من الأغنام البيضاء يخرج من أحد الأزقة ويثير الغبار . مشهد غريب فى هذا الوقت من الليل . والقطيع الذى صار يمر أمامنا يبدو لن ينتهى .

— الا تلاحظ شيئا ؟

— معظم الأغنام بثلاث سيقان . معظمها يعرج .

— كلها .

بخوف .كدت أبوح . قال عبد السلام أنه يكاد يتقيأ . انتهى القطيع وظهر خلفه رجل مغطى بثياب كثيرة حول جسمه وكتفيه وعنقه .

— إنه أيضا يمشى بساق واحدة ويقفز على عكاز .

غمرنى عرق ووجدت عبد السلام يستند على ذراعى . مشينا بصعوبة ولا نتكلم . كنا فى الخلاء الذى يفضى الى شارعنا وقد تركنا الدخيلة كلها تقريبا خلفنا . احسست كعادتى بأنفى يسبقنى ليشم رائحة الياسمين قبل أن تصلنى . وتوقفنا . تاكسى مطفأ الأنوار يقف أمام الفيللا . البوابة الحديدية تفتح ووراءها تخرج مرتدية ثوب الزفاف الأبيض الواسع يتخايل ضوؤه وسط الظلام والتاج على رأسها تبرق فيه الفصوص البيضاء أيضا وجوارها عجوز ترتدى حلة قاتمة ولا صوت . رأينا السائق يفتح لهما باب التاكسى ورأيناهما يدخلان وسمعنا البوابة الحديدية تغلق وتحرك التاكسى مهلا على أرض الشارع غير الممهده قادما نحونا . لم أشأ أن أنظر الى وجه عبد السلام ولعله كان مثلى . ما كاد التاكسى يتجاوزنا حتى التفتنا معا . رأيناها تطل علينا من خلف الزجاج . تنظر الى أم الى عبد السلام ؟ لا يقين . لم يفه أحدنا بكلمة . صرت وحيدا بعد لحظات . كيف تخلف صديقى عند منزله لا أحس به ؟ هل ودعنى ونسيت ؟ لماذا أكاد التفت حولى ؟ لم يكن معى شيء وضاع ،صعدت شقتى وفتحت النافذة . يا الله . أنا أيضا لم أشعر بهواء البحر البارد عند مدخل العمارة .

تطلعت الى كتلة الظلمة الممتدة بحجم الكون وضوء السفينة البعيد الشاحب المزهوق . هذه السفينة تقف منذ شهر خارج البوغاز . على يقين أنا أنها هى نفسها رغم أنه لا نوء فى الجو ولا عواصف . وسمعت صوت الموج . غاضب . قانع . متخاذل . لا أدرى . لو ألقى بنفسى على الصخور الخشنة الصلبة . سأموت . ليكن . هذا الماء الغبى لا يفعل شيئا غير المد والجزر طوال ملايين السنين ، ووحده ، مع نفسه ، لا يشارك أحدا فى شيء ، ولا يبالى بالسفن التى صارت تلوس فوقه ، ولا

بالنفايات التى تلقى فيه ، ولا الأسماك التى تتناحر تحته . هل يضير العالم شيئا أن يفقد أحد أبنائه المُهْمَلين ؟ .. لكننى فكرت فى استقبال العائد من القدس بعد أيام ...

« فجأة لم يعد هناك حديث للناس غير الشيخ لاشين واعظ مسجد سيدى القبارى . صار يوم الجمعة كيوم عرفة من شدة الزحام بالجامع وفى الشوارع وفوق أسطح المنازل . الجميع مأخوذون من خطب الشيخ النارية وخوضه فيما لم يعود الوعاظ الخوض فيه . صار معروفا أن الشيخ لاشين لا يلتزم بالخطبة المقررة من قبل وزارة الأوقاف كما أنه لا يرتجل بل يحفظ خطبه من كتب لا يصل اليها أحد

منذ أسابيع أنهى خطبته بدعاء قال فيه « اللهم انصر أمة الاسلام على جيوش الفرنجة والتتار ومن بقى منهم . اللهم أيد خليفة المسلمين المستكفى بالله سليمان وبارك فى بنى العباس . اللهم أيد سلطاننا الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون وعساكره .... ولا يزال الزحام ... »

« ٦ »

ما الذى دعنى الى هذه الجرأة ؟ . هل هو لغز بيت الياسمين ؟ هل أملت حقا فى فتاة النافذة ؟ . لو صحّ ذلك فسوء الحظ صار يلازمنى . وإذا كان موت أمى جاء عقابا على خططى فى الزواج ، فسوء الحظ يأتى

عقابا على موت أمى . أى دائرة جهنمية وقعت بها . لعلنى لذلك ترددت . لكن ما كادت الاوتوبيسات الثلاثة تصل دمنهور حتى أوقفتها ، انتحيت بالأسطى زينهم جانب الطريق . قبل أن أتكلم تكلم .

— قلبى يأكلنى هذه المرة ؟

أصابنى بالصمت . قلت :

— وأنا أيضا لكن سنعود من هنا وليحدث ما يحدث .

أشرت الى السائقين الآخرين فانضما إلينا . الأسطى عباس شاركنى من قبل .

قال الثالث :

— سنأخذ جنيهين من كل عامل فتوفر ثمانمائة ، تعطى كل واحد مائة ، وتأخذ خمسمائة لنفسك ؟

— إذن لا تعترض على المبدأ ؟

— لكن القسمة بالمعروف .

— تأخذ المائة جنيه أو لا تأخذ شيئا .

وكأننى قررت الانتحار . عدد من العمال ينظرون الينا من خلف النوافذ ويضحكون . تكرر خروجهم معى وهم فى العادة يتولون إقناع الجدد . عدنا من دمنهور . أعطيت كل عامل ثلاثة جنيهات من الخمسة التى تقررت له هذه المرة . فى الاسكندرية أخذ السائق المعترض المائة جنيه وانصرف ضاحكا . كنت أدرك أنه بينه وبين نفسه سيقبل ما أعطيته له وسيفطن أنه لن يستطيع إفشاء سر يستعد أربعمائة عامل وسائقان لإنكاره . فى المساء ذهبت الى عبده الفاكهانى .

— تشترى منى البيت لصالحك وتبتزنى مرتين ثم تبيعه بثلاثة آلاف جنيه قبل أن يدور العام . لن أدفع لك شيئا وسأعرف كيف آخذ منك

ما دفعته كله .

قلت ومضيت . تخيلت فى يدى شعلة نار أجرى بها مجنونا أحرق البيوت والمحلات ، وهرول هو كثيرا جوارى ورأسه لا يكاد يصل الى صدرى ثم وقف أمامى فاردا ذراعيه إلى الجانبين . ضربة فوق رأسه تبعثر مخه . فكرت وكان يبتسم فحيرنى . عدت معه إلى المحل والناس تتفرج على المشهد الغريب .

— من الذى أشترى البيت بثلاثة آلاف جنيه ؟

— أحمد كاريوكا .

— وهل يملك ثلاثة مليمات ؟ . هل تصدق ؟ ثم أنه مضى وقت طويل على ذلك . أنا لم أطالبك حتى الآن بالمائتى جنيه ، ولقد مزقت إيصال الأمانة .

وكان يبتسم وهو يتكلم واثقا من نفسه أشد الثقة . جعلنى أفكر أن أحمد كاريوكا هذا يقوم بتصليح وابور الجاز ، ولا أظنه يكسب فى هذا الزمان .

— ياأستاذ شجرة أنا الذى اشتريت البيت أول مرة بالفعل ، وأنا أيضا الذى اشتريته ثانى مرة . المقدس يحيى وأحمد كاريوكا وامثالهما لعب فى يدى . زبالة .

— ماذا تقصد بالضبط . ؟

— أولا بيتك لم يكن يستحق أكثر من الف جنيه . ثانيا أنت موظف لا دخل لك بما نفعله . وعلى كل حال ستعرف بعد أيام ... ثم أننى أجرت بقية شقق العمارة بثلاثة آلاف جنيه للشقة الواحدة . إذن أكرمتك . تستطيع سؤال السكان عن ذلك .

كان يزداد ابتساما وهو يتكلم وأنا أكاد أقف على أصابع قدمى .

— هه .. السكان كلهم فى الدول العربية .

ــ ياسيدى مصير البترول يخلص ويعودون . البترول ليس إلا بئر وكل بئر وله قرار . وربما تقوم حرب وتولع الدنيا ..

ــ هل مزقت فعلا إيصال الأمانة ؟

ــ كما تحب !

وظل مبتسما . ألقيت إليه بالمائتى جنيه فأخرج الإيصال من جيب صداره . رأيت أظافره حمراء . مشيت ولا أعرف لماذا كنت أريد أن أضحك . !

***

ــ كم حسابك فى البنك الآن يا ... شجرة أفندى ؟

سألنى رئيس مجلس الإدارة بعد أن وقف ودار خارجا من خلف مكتبه . نظرت إلى الدكرورى الذى يقف منكمشا جوار المكتب يعض على شفته السفلى .

ــ أى حساب يا افندم ؟ . أنا ليس لى حساب .

ــ تأخذ نصف ما يتقرر للعمال وتعود بهم من منتصف الطريق ؟

ابتلعت ريقى فلم أجده . لم أرد . كان يقترب منى موشكا أن يصفعنى .

ــ وأنا أخلصك من المباحث . أنا الذى كنت عميلا فى الجيش لم يضحك علىّ اليهود وتسخر أنت منى . سأعرف كيف أسجنك .

كان يتكلم وقد دار حول نفسه يعود الى مكتبه . صوبت نظرى حادا إليه بعد أن جلس . الحقيقة كنت مصعوقا من المفاجأة . إلا أنى رأيته يخفض عينيه ويرخى فوقهما هدبيه . أصابنى ذهول وأدركت أنى منتصر .

ــ أنا لا أفعل ذلك وأظن أنه سبق ووصلكم خطاب شكر ، كما أن

الدكرورى خرج أكثر من مرة مع العمال ، ولو كنت أفعل ما تقوله لكان عرف شيئا . هل عرفت شيئا من ذلك يادكرورى ـــ ولم يرد الدكرورى ـــ ونحن هذه المرة تعبنا كثيرا حيث لم يستقبلنا أحد فوقفنا فى طريق مطار القاهرة وحدنا كانت هناك فوضى ولا أحد يعرف المشاركين الحقيقيين

إستطعت الاستمرار فى هذا الكلام كله . لابد أن أحدا غيرى هو الذى تكلم . وجه الدكرورى انقلب إلى اصفرار فاقع وتخيلته يكاد يتلاشى كان كلامى عن طريق المطار مما رأيته من صور تصدرت الصحف بعد عودة الرئيس .

ــ إمش إمش من قدامى

صرخ فمشيت وخلفى يهرع الدكرورى على السلم أمسك بذراعى فنفضت يده عنى وتركته مذعورا

إحتفظت بالثلاثمائة جنيه الباقية معى تهيؤا لأى عقاب . كل من بالإدارة من الرجال والنساء يقابلنى فيبتسم فى وجهى أو فى الأرض دار الخبر كما تدور الماكينات إذن وغمت مصيحتى . اكتشفت أن أكثر موظفى الإدارة يعرفوننى من كثرة ما واجهت من ابتسامات وأنا الذى تصورت نفسى منفيا لطول عملى بحجرة ليس فيها غير الملفات جاءنى السائق الثالث ليقسم لى أنه ما أبلغ أحداً بشيء ، وأبدى استعداده أن يعيد المائة جنيه قلت أنا المسؤول أولا وأخيرا وأنه لو أبدى رغبته هذه أمام أى أحد سنضيع كلنا وربما كان أقل جزاء هو الفصل من العمل . فى المساء اعترض عبده الفاكهانى طريقى وقال ضاحكا :

ــ بعت البيت بعشرة آلاف جنيه .

ــ وما شأنى ؟

ــ الم أقل لك ستعرف بعد أيام ؟

لو أمسكت رقبته بيدى سأعصرها عصرا .

ــ لنفسك أيضا ؟

ـــ لا . هذه المرة لتاجر فى الوكالة . أظنك فهمت الآن .

***

اعترفت لحسنين وماجد وعبد السلام بكل شىء . فكرت كثيرا ألا أفعل . هل كنت فى حاجة لأن أزيح بعض الهم عن نفسى ؟ . وكدت أقطع الحديث . وكنت خائفا أن لا يفهموا مما أقول غير الحقيقة ، والحقيقة أنى لص ، لكنهم ضحكوا . ربما يحافظون على مشاعرى . لكنهم استمروا يضحكون . لم يستنكروا مما فعلت خردلة . فى كل ليلة صاروا يطلبون أن أحكى الحكاية من جديد ويضحكون . قلت أنى بقدر ما أشاركهم الضحك أخاف كل يوم أذهب فيه الى العمل . رئيس مجلس الادارة يستطيع على الأقل أن يجبرنى على دفع ما أخذته من حقوق العمال عن كل مرة خرجت معهم ، وفى هذه الحالة لا يكون أمامى إلا أن أعيد الشقة لنى عبده الفاكهانى وأهيم فى الطرقات .

قال حسنين أن الناس سرعان ما تنسى الفضائح ، وقال ماجد أننى ربما أجد من يؤيدنى ولو فى سره ، وقال عبد السلام ربما يأتى يوم نصبح فيه حكايتى بطولة يحكيها الناس كنادرة من نوادر الشطار ، ثم ذكرنى حسنين بأن أسبوعين قد مرا على مقابلتى لرئيس مجلس الإدارة ، وأنه لو أراد أن يفعل شيئا لكان فعله .

***

فتحت بالثلاثمائة جنيه حسابا فى البنك لأول مرة فى حياتى . لم أصدق وأنا أقرأ جريدة الاهرام فى الاوتوبيس . قرأت الخبر أكثر من مرة . أخذت استعيد لقاءه لى وكيف بدا مهتزا وهو يحدثنى . لابد أنه كان يعرف . مسكين حقا .

ـــ أنت محظوظ باشجرة

قال لى الدكرورى الذى أتى الى مكتبى ظهرا . أخفيت ابتسامتى .

ـــ كان رئيس مجلس الإدارة فى وضع صعب منذ مظاهرات يناير اكتشفت مباحث أمن الدولة أن الشركة وكر للشيوعيين ، وأن سيد برشو ليس له وجود أصلا بين العمال ، وبالمناسبة لم يعثروا عليه حتى الآن ، وهذا الاسبوع قبضوا على ثلاثة عمال لهم صلة بتنظيمات سرية .

ـــ ألم يكتب مذكرة بالموضوع . هل يعرف رئيس مجلس الادارة الجديد شيئا ؟

ابتسم وقال :

ـــ لا . أنا قادم من اجتماع معه . دعانى ورؤساء الاقسام فى أول يوم عمل له .

قلت لنفسى « لقد نجوت » وقلت للدكرورى :

ـــ أنا لن أشارك فى أى مسيرات بعد اليوم .

وأضفت الى الثلاثمائة أربعين جنيها بعد صرف مرتب شهر مكافأة على تدشين سفينة جديدة ظهرت فى الصحف وجوارها رئيس مجلس الإدارة الجديد مبتسما . لف الاسكندرية الشتاء فلم أعد أغادر الشقة بالمساء . نكرت أزور أمى بعد صفاء الجو . أمى مدفونة فى مقابر عامود السوارى مع أبى فى مقبرة عامة لأبناء بلدة الدنجمون الذين يعيشون فى الاسكندرية . لم أر بلدتنا فى حياتى وإن كنت أعرف أنها تابعة لمحافظة الغربية وتقع بين كفر الزيات وطنطا ومنها خرج عمر لطفى مؤسس الحركة التعاونية فى مصر ! . صفا الجو فنسيت . ربما لكرهى للمقابر . وبالمقهى قال حسنين :

ـــ يشاع أن رئيس مجلس الإدارة الجديد جاء لعقاب العمال على مظاهرات العام الماضى .

قلت :

ـــ لقد صرح بذلك فى اجتماع عام ! . أول قراراته كان إلغاء الاعفاء

المؤقت من التجنيد الذى يُمنح للفنيين بالشركة باعتبارها مشروعا استراتيجيا . الآن أكثر من ثلاثة آلاف فنى استدعوا الى الجيش فى شهر واحد . لقد تدهور الانتاج تماما .

كان ماجد مشغولا باللعب مع عبد السلام فقال بعد أن ضغط نظارته فوق أنفه :

ـــ المسألة ليست المظاهرات . المشروع فى الأصل سوفييتى .

ـــ الحمد لله « باتا » ايطالى .

هتف حسنين ضاحكا فانطلقنا نضحك بصوت أربك الجالسين . وقال ماجد :

ـــ لو كان باتا سوفييتى كانوا ضربوكم بالجزم . كانوا ضربوك أنت بالذات . بص . تخيل نفسك ـــ وأخذ يشير بيديه إلى حسنين ويرسم خريطة فى الفضاء وأنا وعبد السلام لا نكف عن الضحك ـــ أنت تقف وسط الجنود . الجنود حفاة أمسكوا جزمهم بدلا من البنادق . أنت تركز على ركبتيك موثوق الذراعين خلف ظهرك معصوب العينين . صفا . انتباه . الهدف ثورة يوليو المشهورة باسم حسنين . عمّر . إضرب ...

كدنا نسقط من فوق المقاعد . ماجد له وجه طفل برىء . يبدو جادا فى كثير من الأحيان ، وإذا فكرت تجد أن كثيرا مما يبدو جادا فيه لا يستحق هذه الجدية ، لكنه أيضا إذا هزل اندفع يضحك بكل طاقته .

قمت أتمطى بظهرى الذى شعرت بتعب فيه من فرط اهتزازى وأنا أضحك ، وضحك الجالسون من ضحكنا ، وضحك محسن الجرسون الذى لا يضحك أبدا فدفع بضحكنا أكثر . يقولون أنه منذ تزوج اكتأب . لقد ظهرت على زوجته بعد ثلاثة أشهر من الزواج علامات غريبة فى صوتها وجسدها انتهت بأن تحولت الزوجة الى رجل !! .. قال عبد السلام لحسنين الذى أحمر وجهه كثيرا :

ـــ أنت الذى وصفت نفسك بثورة يوليو .

ووجدت نفسى أقول لحسنين بهدوء :

ـــ بالمناسبة ، لماذا تخلو جزم الشركة من الذوق ؟

ـــ أزمة قوالب ياشجرة

لم نجد ماجد بيننا ، أمسك بطنه وانحنى يقفز ضاحكا والجالسون الغرباء يتابعون مشهدنا الغريب . سألت بوقار وكنت متعمدا . أجاب حسنين بنفس الطريقة وكان متعمدا . تحول السؤال والإجابة الى هزل كامل .

سعيد أنا حقا بسدادى لديونى ، وافتتاح حساب فى البنك ، وانحسار الفضيحة ، والإفلات من العقاب ، وكنت قررت جادا البحث عن زوجة . ليس معقولا أنى تسببت فى موت أمى ، ولا معقول أن الله يحاسبنى على إرادته . نجوت من كثير من الشرور بسهولة . وهذا يعنى أنه فى جانبى ، وفكرت أن أشرع فى التجول بين الإدارات الفرعية بعيدا عن حجرتى التى تحاصرنى بالتراب والملفات أتشمم رائحة الجنس الآخر إلا أنى أدركت الآن فقط . وعلى المقهى فى هذه اللحظة ، أنى تقريبا أعرف كل الموظفات بالإدارة ، وانهن جميعا إما متزوجات أو مخطوبات . أجل . خمس سنوات مضت لا تطلب فيها الإدارة موظفين أو موظفات جددا ، وليس من المعقول أن تبقى فتاة بعد العمل خمس سنوات بلا خطبة أو زواج ، فما بالك وأكثرهن تعملن قبل ذلك بكثير . لكن عبد السلام قال بعد أن عاد ماجد :

ـــ يبدو أننا سنصاب بالجنون ، هذا الضحك غير طبيعى .

رد ماجد وهو يقاوم الضحك ويجفف الدموع من عينيه بعد أن خلع نظارته :

ـــ ولماذا نذهب بعيدا . الدكتور موسى الذى يعمل معى فى الصيدلية يشتم الناس والبلد طول النهار ويقول ما بال هؤلاء المرضى لا يشفون وما بال

الدولة لا تقتلهم ونستريح ، ويقول أيضا أنه لن يرتاح إلا إذا سافر إلى الكويت بالذات .

وعاد يضحك ونقاوم نحن الضحك فقال حسين .

ــ أنت تعمل مع الدكتور هتلر ولا تدرى .

ولكنا لم نضحك هذه المرة . قال عبد السلام :

ــ بالمناسبة .. لقد قررت السفر الى العراق .

فبدنا صمت مستبد غريب كأننا لم نكن نعربد منذ قليل .

« ولد طفل بذيل . شيء عادى يمكن أن يحدث . بعد اسبوع عرفت الاسكندرية أن الحادثة تكررت فبدأ الناس النقاش . ما كاد أسبوع آخر يمضى حتى شاع أن امرأة ثالثة أنجبت طفلا بذيل أيضا ، وسرعان ما صار معروفا أن مستشفى الشاطبى امتلأت بالاطفال المولودين وهم ذيول . تمنت كل حامل أن يسقط جنينها ، وبعضهن متن وهن يحاولن ذلك ، وقيل أن العلم علم لعنة فانقطعت الزيجات . وصار القوى من الرجال لا يعاشر زوجته ، والضعيف يرسلها لأهلها أو يطلقها حتى يمر العام .. »

« ٧ »

« تخرجت من كلية الزراعة فتلقفنى الجيش . هزمنى فى حرب حاصرنى فى الثانية . لم أحزن ولا أصابنى ضجر . لكنى وقد خرجت وجدت كأنى فى ناحية والدنيا هذه التى خلقها الله لنا جميعا فى ناحية . بل تحسب أنى أحب « الطاولة » أو الجلوس بالمقهى ؟ . هل تحسب أننا

سنستمر نفعل ذلك ؟ لو حدث لاكتملت المأساة . الطبيعي أن نفترق . يشق كل منا لنفسه حياة ويتذكر الآخرين لكننا لا نستطيع . ليس لأن الدخيلة صغيرة ولا تزيد عن شارع واحد وبضعة أزقة ولكن لأنه لا يوجد لأى منا موضوع يسعى وراءه . هل تعرف لماذا يصر حسنين على الدراسة فى هذا العمر ؟ . لا تقل للحصول على مؤهل جامعى . ماقيمة مؤهل جامعى فى زمن فيه عبده الفاكهانى ؟ . حسنين إن لم يفعل ذلك سيجد وقتا يفكر فيه فى نفسه !! وأنت . لديك شقة ، ووحيد بلا أعباء ، ولكنك أيضا لا تريد أن تشق لنفسك حياة . لماذا لا تتزوج وقد قطعت أصعب خطوة ؟ . هل تحيا حياة لذيذة . لا أعتقد . وهى أيضا ليست قبيحة . لكنها بلا طعم . لابد أنك تعرف ذلك ولا تريد أن تواجه نفسك . الوحيد الذى وجد موضوعا لحياته هو ماجد . أصبح يدير صيدلية هو صاحبها . لكنها بدلا من أن تصبح موضوعا لحياته كما ينبغى ، أى قاعدة يقف فوقها ، أصبح لا يتركها الا فى القليل النادر . صارت الصيدلية حياته نفسها يختبىء فيها من الدنيا . أنا مثلكم وأزيد . لا أجد شيئا يهزمنى أو أهزمه . عمل روتينى فى تفتيش زراعى برشيد أكسل فى معظم الأيام عن الذهاب اليه ، فأنام حتى الظهيرة ، ولا يحاسبنى رئيس . لو سألتنى عن الزراعة لوجدت أنى نسيت كل شىء . لو سألتنى عن عمل آخر لقلت لك أنى مهندس زراعى . نحن جميعا لسنا بناجحين فى شىء . ولا فاشلين أيضا . نقف وسط الفضاء الفارغ . خرجت من الجيش الذى لا أحب الخوض فى تجربتى فيه . لا أعرف كيف نجوت . هذه هى الخلاصة . أحاول أن أضع ستارا من حديد بينى وبينه . ولقد نجحت الا مع شخص واحد . جندى صغير التحق بالجيش بعدى بخمس سنوات . شدنى وجهه الطفولى الجميل . صوته الهادىء المرح . وكنت أحس به دائما أكبر منى .

كان يملأ خنادقنا بحكايات من كل عصر وكل بلد . دائما تجد عنده رواية

نقرأها . كدت لا أصدق أنه طبيب . قبل الحرب بأيام انفرد بى بعد منتصف الليل . قال أنه من الضرورى أن نلتقى بعد الحرب . قلت « موافق . بعد الحرب » . وكنت ابتسم . قال انه لا يهزل والحرب بعد أيام . كيف عرف ذلك ؟ أنا وآلاف مثلى مللنا المشاريع العسكرية والانتظار ولم نر حربا فى الأفق . كان مختلفا عن كل من عرفت . لم يكن على اتصال بأى جهة يمكن أن تبلغه بموعد الحرب . مجرد جندى عادى كان . والحرب لم نعرفها الا وقت بدئها . لم يعرف بها الضباط أيضا . ولابد أن الشعب نفسه لم يكن يعرف . لابد أنك قرأت شيئا عن ذلك فى الصحف . سألته لماذا يريدنا أن نلتقى بعد الحرب . سألنى ماذا افعل فى الأجازات . قلت أرى أمى وأبى وأخوتى والعب الطاولة مع اصدقائى وأنام . قال عما يتحدثون ؟ قلت فى المقهى نلعب وفى البيت يتشاجرون . قال بين الشجار واللعب ضاعت حياتنا . البلد نفسها ضاعت ولابد من انقاذها . وقال ببساطة شديدة اذهلتنى اننى ، معه ، نستطيع أن نفعل ذلك ، واننى الوحيد من بين المئات الذين قابلهم فى الجيش الذى أصلح لتلك المهمة . قال أننا سنهزم اسرائيل . ليس لأننا أقوى منها ولكن لأننا سنحارب بروح المنتحر . الخنادق والتدريب المتكرر لسنوات بهذا الطول تجعل الإنتحار حياة حقيقية . سنحارب لاننا سننتحر . الانتحار أيضا يمكن استثماره . هذا ما سيحدث بالضبط . وقال مرة ثانية « بعد أيام » .

كنت أرتعش من حديثه وكدت ابكى معه حين بكى . ليلتها لم أنم . لليالى بعدها لم أنم . فى الأيام الأولى للحرب بدت لى المعارك كالأحلام . كنت نائما وأنا أعبر . نائما وأنا أجرى فوق رمال سيناء . ونمت مرة لوقت طويل . كانت غارة شديدة فوق موقعنا الجديد على الضفة الشرقية . انتهت الغارة وحملوا القتلى وأنا نائم نوما حقيقيا وعبروا بهم الى الضفة الغربية . من يومها لم أره . لم أذرف دمعة لأن الجنود لا يبكون . لكننى كثيرا ما تعذبت بالسؤال . هل أنا قادر حقا أن أقود ثورة فى هذا البلد ؟ ولماذا ؟ . أنا شخصيا لا أشعر أن هناك مشكلة عند أحد . كل من أعرفه يدير أموره

بطريقة ما . ورغم ذلك كثيرا ما فكرت فى هدف أدبر أمورى تجاهه ولم أصل لنتيجة . خرجت من الجيش فاكتشفت أنى تجاوزت الثلاثين بثلاث سنوات . حتى الأزياء وتسريحة الشعر وتسوية السوالف تغيرت . لا يستطيع من تجاوز الثلاثين فجأة مثلى أن يفعل شيئا . لكنك أنت . أنت ياشجرة ومعك ماجد وحسنين المحظوظون الحقيقيون لانه كانت لكل منكم الفرصة كاملة فى إحصاء السنين ، ولك أن تعتبرنى مجنونا إذا شئت » .

كان هذا آخر ما سمعت من عبد السلام فى الليلة الأخيرة قبل سفره حين انفردنا فى الطريق . كنا دائما نعبر بيت الياسمين فنراه مظلما إلا من ضوء مخنوق خلف النوافذ فنكف تلقائيا عن الكلام . أسأل نفسى عما عسى يفكر فيه عبد السلام حين يعبر البيت . وأقول لعله يتساءل مثلى عنى ! . بعد سفره قررت أن أذهب الى شقتى من الشارع الموازى ، ولا أمرّ ببيت الياسمين مرة أخرى . كنت أحسب أن عبد السلام مثل آلاف الشبان الذين يسافرون لتدبير المال اللازم لاستئجار شقة والزواج . ادركت أن ذلك ليس هدفه ، ولابد أن تواضع حال اسرته لا يضايقه ، فهو لم يذكره فى حديثه من قريب أو بعيد . فى لحظة فكرت أنه من نوع سيد برشو ، لكن الأسى الذى يغلف كلماته جعلنى أدرك أنه مختلف . نوع يستعصى على عقلى . وهو ليس مجنونا فى كل الأحوال . إنه مثل عشرات الشبان الذين يقفون شاردين على محطات الاوتوبيسات لا يعبأون بالشمس فوق رؤوسهم ، ولا يدركون أنهم لو تحركوا قليلا سيقفون تحت المظلة . تنبهت الى هؤلاء فجأة وكثيرا ما امسكت نفسى متلبسا بالنظر الى المحطات احصى الواقفين بعيدا عن المظلة . وقد يكون عبد السلام مختلفا ايضا . الحقيقة انى عاجز عن فهمه . احببته قبل أن أراه ولم أزل أحبه . تلقى ماجد منه رسالة أحضرها معه الى المقهى فعرفنا أنه وجد عملا فى منطقة تسمى « الخالص » ليست بعيدة عن بغداد فى محطة للصوبات الزجاجية . حفظنا عنوانه وفى كل لقاء تحدثنا عن ضرورة الرد عليه . كل منا يقرر أنه سيفعل ولا يفعل . بدا أننا لا نتذكره الا حين نلتقى . نوع

من الإحساس بالذنب . ربما . ولعلها رغبة أن يبرىء كل منا نفسه . كان الشتاء قد مضى والصيف . فى عيد العمال ذهب أعضاء النقابة وحدهم كالعام الماضى . فى السادس والعشرين من يونيو جاء الرئيس بالهيليوكبتر فالغيت الاحتفالات . يقولون أن هذه الهيليوكبتر أهداها اليه نيكسون عام ١٩٧٤ . بالقطاعة ما أواجه . نيكسون يهدى الرئيس طائرة ليتنقل بها فتلغى الاحتفالات وينقطع رزق السنوى . لكنى سبق وقررت أن لا أخرج بالعمال : ما وجه الغيظ اذن ؟ . ماجد صار كثير الشرود وقررت أكثر من مرة أن أسأله فى ذلك ودائما أنسى . لكنه حل اللغز أول يوم من شهر اكتوبر وقال كمجلوب :

ــ سمراء خضراء العينين سوداء الشعر خلاسية من هناك أجمل من هذا ؟ . قالت أنها طالبة فى كلية العلوم . ثلاثة لقاءات وأخذت عقلى وقلبى . فى الأول اشتريت شامبو . فى الثانى ضحكت وتحدثت قليلا . فى الثالث جاءتنى تبكى تطلب منى توصيلها الى بيت عمتها التى معها عنوانها ولا تعرف كيف تصل إليه . جاءت من القاهرة تمضى الصيف عند خالها لكن زوجة خالها أساءت معاملتها . قالت لى أنها لن تترك بيت عمتها وتسافر إلى القاهرة قبل أن تتصل بى ، وإذا سافرت ستراسلنى . مضى شهران الآن ولم تتصل بى أو تراسلنى . سأسافر إليها القاهرة .

ــ وهذا ما يجعلك شاردا ؟

تساءل حسنين فلم يرد ماجد . سافر بعيدا عنا فيما بدا من وجومه . صار يسافر كل اسبوع ويأتى ليقول :

ــ لا أعرف ما إذا كانت بجامعة القاهرة أم عين شمس ؟

ويسافر ويعود .

ــ لم تقل بأى سنة دراسية . قالت العلوم وربما قالت دار العلوم ولا أدرى .

ويسافر ويعود .

— دخول الجامعة صعب . الحرس الجامعي والأمن . الجامعة قلعة . انني أقف على الباب أسأل الطلاب . هل أنت من كلية العلوم . الجامعة القاهرة أكثر من باب . انني خائف .

وظل يسافر . قلت لقاءاتنا . طاردنا الشتاء فانعدمت .

***

دخل الدكروري حجرتي ضاحكا وقال قبل أن يلقى التحية .

— أما آن الآوان أن تترك هذه الحجرة المعتمة ؟

تأملته في المسافة من الباب الى المقعد الذي أمام مكتبي . قلت

— دكروري . أنت نقيب العمال طبعا ؟

ابتسم . بدا مندهشا كطفل ثم أحمر وجهه الشاحب .

— هل تسخر مني ؟

— اطلاقا . لكن خطر لي أن أسألك لماذا لا ترتدي « الأوفرول » مرة . أنت فني كهرباء فيما أعلم .

ضحك ..

— معك حق ، لكنني نسيت الكهرباء . مشاكل العمال كثيرة مع الإدارة وأنت تعرف .

ابتسمت . يقول دائما عن أشياء لا أعرفها أني أعرفها . قلت :

— لماذا تريدني أن أترك هذه الغرفة ؟

— هذا طبيعي لأي انسان . أنت تعمل منذ عشر سنوات . من حقك الترقية وطلب موظفين جدد يعملون تحت رئاستك . هكذا ينسونك . اكتب لي شكوى احققها لك .

ضحكت . قدمت له سيجارة فقال انه اقلع مؤخرا عن التدخين .

التدخين ضار بالصحة ! . وهو أيضا يريد أن يقتصد ليوفر ما يساعده على الزواج الذي تأخر فيه كثيرا . وقال :

— ستكون استقبالات الرئيس جبارة هذه المرة . الجرائد تقول أن لقاء كامب ديفيد سينهي الصراع العربي الاسرائيلي الى الأبد . سيذيعون التوقيع على المعاهدة بعد غد على الهواء مباشرة . استعد .

— هل سأخرج أنا بالعمال ؟ تعرف أني أقلعت عن ذلك .

— خروجك فيه رد لاعتبارك . حقا مضى وقت طويل على ما حدث ، لكن رد الاعتبار مطلوب ؛ ولا تنسى أني قلت لك أن رئيس مجلس الإدارة لا يعرف شيئا عنك . يجب أن تخرج ولو مرة واحدة حتى ينتهي أثر الحادثة القديمة تماما بين العمال والموظفين .

مضى وتركني أفكر فيما يفعله معي بالضبط . كيف يعرف أني لص ولا يبدي دهشة أو اعتراضاً ، وكيف يفكر في رد اعتباري رغم مرور عام ونصف تقريبا وهو وقت كاف لمحو أي أثر لحكاية لا تعني أحداً في الحقيقة . وهو ايضا يريد ترقيتي . لابد أن الدكروري هذا رسول للعناية الإلهية . نبي ولا أعرف . وصدقت أنه فعلا يقتصد ليتزوج . امتلأت بالإشفاق نحوه ، وازداد حبي له ، وأحسست أني بحاجة فعلا إلى رد اعتباري ..

***

قبل موعد السفر بيوم طلبت الأسطى زينهم بالتليفون فحضر الى مكتبي . قلت خمسمائة عامل هذه المرة وأربعة سائقين . وجدته يعرف . سألته عن السائق الرابع الذي يخرج معنا لأول مرة . قال أنه سيتولى أمره . أفهمته أن يحضر إليّ وحده في الخامسة صباحا بميدان محطة مصر ، وأن يترك الأوتوبيس أمام بيته . ، وأن يخبر السائقين الثلاثة أن يحضروا بين السادسة والسابعة بمقهى « الأقصع » ، وأن يتركوا الأوتوبيسات أمام بيوتهم

أيضا أو فى أى مكان يختارونه بحيث لا يراها أحد من الشركة ولا يكون هناك احتمال واحد لذلك . « ألن نمضى اليوم فى أى مكان ؟ » سألنى . قلت « سننهى المهمة قبل أن تبدأ » . ابتسم وسألنى عن الوجبات الجاهزة التى ستكون محملة معه قلت ضاحكا « بعها واقتسم حقها مع السائقين أو كلوها » .

فى الخامسة صباحا كنت أقف مرتديا بلوفرين ، وأكاد أدخل فى بعضى من برد مارس ، والظلام لا يريد أن يتزحزح . وصل الأسطى زينهم متكوراً فى حجم ضخم بسبب الملابس التى كومها فوق لحمه المتكوم أصلا فوق عظامه فبدا لى يتدحرج . أعطيته أربعة كشوف بأسماء العمال وطلبت أن يشطب اسم العامل الذى يتسلم أجره . لابد أن مشهدنا كان مميزا فى الميدان النائم المنكمش بردا فاستدل علينا العمال بسهولة . صرت أسلم كل عامل ثلاثة جنيهات ويشطب الأسطى زينهم اسمه . فى السادسة والنصف التقينا بالسائقين الثلاثة بمقهى الأقطع والحركة بدأت تتناثر فى الميدان الذى يستيقظ كسولا من حولنا .

— أستاذ شجرة ... نحن نحبك لكن الظروف صعبة هذه المرة .

قال السائق الذى اعترض على المائة جنيه فى المرة السابقة ثم أخذهم ، والذى عبّر عن تعاطفه معى حين انكشف أمرى فأتى يعرض ردهم ، وأكمل .

— نريد مائتى جنيه لكل منا .

رأيت السائق الرابع الذى يخرج معنا لأول مرة يشرب شايا بالحليب فى استغراق على منضدة بعيدة كأن شيئا لا يعنيه . الحقيقة أيقظ صمته خوف . بدا لى مجرماً بليداً عتيدا فى الإجرام .

— تمرد هذا ؟

— سنعوضها لك المرة القادمة .

أجاب الأسطى زينهم وهو ينظر فى الأرض . هو إذن الذى خطط

المسألة هذا العجوز المتكور مختفيا فى الثياب . كنت قررت أن أعطى كل سائق مائة جنيه فقط واحتفظ بستمائة لى بعد أن استقطعت من كل عامل جنيهين .

— وإذا رفضت ؟

— لن نخسر صداقتنا . سنترك المبلغ كله .

قالوا تقريبا معا . سيتركون لى الجريمة كاملة إذن . ويبدو أن وجهى حمل بشائر الموافقة رأيت الأسطى زينهم يبتسم ، وسمعت السائق الجديد يقول :

— الرئيس حى ، والشعب حى ; ومشاكلنا مع الدول بالكوم ، ولن تنتهى الزيارات ولا الإتفاقيات .

تكلم الوغد حاسما وعاد يشرب الشاى بالحليب . ليكن . ابتسمت . قلت :

— يبدو أنها آخر مرة .

كدت أجن بعد أن عدت الى الشقة . تذكرت الخمسمائة وجبة الجاهزة . لابد أن زينهم وجد طريقة لبيعها ، أو لم يتسلمها أصلا من أجل نظير اتفاق ما . فى النهاية ضحكت .

***

مضى شهر على اليوم الذى زرت فيه قبر أمى وأبى . كنت تركت العمل فى الحادية عشرة صباحا وذهبت الى بنك مصر لأضع المائتى جنيه الأخيرة فى حسابى . مشيت قليلا فى شارع صلاح سالم ، وفى المنشية وجدت نفسى أركب الترام رقم خمسة . ما الذى دفعنى لذلك ؟ قلت أمى وأبى ولا أحد غيرهما . فكرت من قبل فى زيارتهما ولم أفعل . لابد أن رغبتى قوية . الساعة الواحدة ظهرا والصيف لم يدخل بعد إلا أن الترام مزدحمة . اخترت لنفسى موقعا جوار الكمسارى الجالس جوار الباب

الخلفي . أسندت ظهري على جانب الترام . لدىّ ما يعلو بذهني وإحساسي عن الزحام . لا أريد أن أشكو لوالدى شيئا . لا أريد الاعتذار عن شيء . أريد أن أراهما ولو فى حلم . ليس لدى صورة فوتوغرافية لأى منهما . وأكاد أنسى ملامحهما . لكن شعاعا سقط فوق وجهي وتركز عليه من بين الزحام . وجه ساطع الابتسامة يطل علىّ . ارتبكت . غير مُهيأً أنا لأى مغامرة الآن . ركزت نظرى على قدمى . إحساسي بالشعاع الرقيق مصوبا الى وجهى قائم . نظرت غير قادر على الهروب . وجه المرأة يزداد ألقا ودهشة معا ، ويختفى وراء رجل طويل . انتهى الموقف . لكنى أعود لأتلمس فرجة تسببها أى حركة للرجل الطويل لأرى وجه المرأة من جديد . لم أدر أن حركة عينى تسبب حرجا للرجل إلا حين اصطدمت بعينيه فرأيته مرتبكا ومرتابا . أخفضت بصري وسكت .

من باب المقابر تسلمنى الأطفال الحفاة قذرو الثياب يطلبون « الرحمة » ، والشيوخ النحاف الذين يقفزون كأبى قصادة ويهرولون فى قراءة القرآن الذى لا يحفظونه . كدت أعود . فى حاجة أنا الى وقت أبكى فيه . أحس بذلك ولا أعرف السبب . فى حاجة الى دموع تغسل نفسي . تشرح صدري وقلبي المهموم بما أدركه . هل جئت كما تمنى أبى من الله فعلا ؟ . على القبر وقفت وحيدا بعد أن أشحت بذراعي فى زهق لمن اقترب منى من الشيوخ والأطفال . وجدت نفسي أذكر المرأة التى ابتسمت لى فى الترام . إنها كوثر . كوثر أخت هانى واختى فى الزمن الجميل .

مضى شهر الآن على ذلك اليوم ولا أصدق أن الطريق الذى يسلكه سائق التاكسى سيصل بنا . يمشى بين أزقة ارتفعت فيها عمارات فأظلمتها . شوارع امتلأت بالورش والمقاهى فاضجرتها . وأمام منطقة امتلأت بالخيام القديمة القائمة قال « وصلنا » .

كان على حق . ها هى المستشفى عارية أشجارها ومقطوعة اتسعت

بينها المسافات . نوافذها يطل من كل منها أكثر من شخص . والمساكن القوية المتساندة فى تجاورها تبدو فزعة من جهامة ما يحيطها . قصيرة حيث ارتفعت الارض حولها . حال لونها وكساها الغبش .

— كما ترى لا استطيع أن أتقدم اكثر

— ما هذا ؟

— حضرتك كنت بالخارج ؟ هذه مساكن الإيواء .

غادرت التاكسى فقابلنى هاموش حاصرنى وذباب وروائح عفنة راكدة ثقيلة تزكم الفضاء هل أعود ؟ لماذا أتيت اذن ؟ تقدمت .....

أطفال عراة ونساء كالحات يقفون أمام الخيام وأكشاك الصفيح . رجال مشغولون بأخشاب وألواح معدنية صدئة ومتجهمون . براز . براز فى كل خطوة فوق الارض . أصوات راديوهات وتليفزيونات وشبكة من الأسلاك تحتكب الفضاء . بين آخر الخيام وباب العمارة متر واحد مواز للمساكن امتلأ بالوحل والبط والدجاج اللاهى والقطط الصغيرة المبتة . أين ذهب الله الآن وكيف يتركنا ؟ أهدانا جنته يوما فكيف تخلى عنا فى هذا الوقت القصير ؟ . أى أحمق أنا ؟ طال الزمن وتمدد مترهلا ولا أدري . أنظر فى المرآة كل صباح أمشط شعرى فلماذا لم أدرك ذلك ؟ . أكان لابد ياكوثر أن تنظرى لى ؟ . لابد أنى لن أجد أحدا : ولابد أنك تزوجت . مثلك لا تنتظر كثيرا . جمالك الباهر وعطرك الطائر يحرك القلوب البعيدة . لقد رأيت وجهك أكثر استدارة وشحما . وجه امرأة ناضجة مروية . لن أجدك ولن أجد هانى الذى لابد يعيش مع زوجته فى القاهرة . ألم يقابلنى فى محطة الرمل يوما وقال أنه سيتصل بخطيبته التى فى القاهرة ؟ . وها هو السلم مظلم أمامه تمدد رجل منتفخ بالورم واضعا عكازا على الأرض جوار ساقه المقطوعة ولا يشعر بدخولى . حوله دجاج وبط صغير وأنا أخطو على أطراف أصابعى . النوافذ التى تطل على المنور الواسع مغلقة كسا زجاجها تراب وعنكبوت ولا بصيص من نور . ها أنذا

أصعد فى الظلام ولا يقابلني شاب كان طفلا فأعرفه ، رجلا كان شابا فيعرفني ، عجوزا يسألني عن أمي وأبي . أعرف أن قانونا صدر بعد رحيلنا بأيام يعطى الشقق لسكانها ملكا مؤبدا ، وربما كان هذا القانون هو الذى عجّل بموت أبى اذ جسّد أمامه سوء الحظ كاسرا . وربما لم يكره أبى الجبل ولا أراد أن يخذلني . رغم هذا القانون لا يبدو أن أحدا يصمد للعيش فى مكان تخلى عنه الله . لكنى أصعد . لن أخطىء شقتكم ياكوثر . كانت أوسع من شقتنا . كان أبوك موظفا بالإبتدائية فكانت شقتكم ثلاث غرف . ها أنذا أدق الباب . هل تقابلنى أحلام ؟ اختك الصغيرة التى تذكرتها يوم ابتسمت لى فى الترام ، والتى كانت ناجحة فى « القبول » يوم رحلنا ، والتى لابد أنها عروس ناضجة الآن ، ومن أجلها جئت أنا . . كانت أحلام تنشر نفس عطرك وكنت أنا أكبر منك فتجاوزيننى أنت فى النضج وتظل أحلام بالنسبة لى طفلة . لعلها إذا رأتنى تذكرت كيف كنت أطيب خاطرها حين يضايقها هانى الصاحك الأبدى ، ثم يأمرها بأن تجهز لنا شايا بالنعناع فتخرج غاضبة ، وتدخلين أنت بالشاى ناعمة متوردة الخدين ، وتضعين أمامنا اللب والفول السودانى ، وتقولين أن فيلم الليلة بالتليفزيون الذى اشتراه أبوك حديثا جميل ، وأنك استرحت من عذاب المذاكرة بعد أن توقفت فى الإعدادية عن التعليم ، أو أن الإرسال طول النهار مشغول بجمال عبد الناصر وهو عمّال يستقبل الملوك والرؤساء العرب مش عارفة ليه ... تذكرين أنى قلت مرة « مؤتمر قمة » فهزرت كتفك وقلت « قمة إيه » وضحكنا أنا وهانى وقال كعادته « عائلة خايبة كلها » . ها هو الباب يُفتح ولا أرى أمامى أحلام . من هذه الطفلة الصغيرة سمراء الوجه التى تقف أمام قدمى ؟

— من ياتور ؟

صوت يأتى من الداخل لعله صوت كوثر . هو عينه . لا أخطىء البحة فيه ولو مرّ من السنين ألف . اسمها نور هذه الطفلة السمراء التى ترفع وجهها إلىّ . يا للمسافة التى بين عينى وعينيها .

— من حضرتك ؟

تتكلم بطلاقة وثقة وأنا ابتسم ولا أتكلم . دخلت جارية وسمعتها :

— راجل طويل توى ياماما ما بيتكلمش خالص . !!

لم أسمع وقع أقدام . رأيت كوثر أمامى حافية شعرها الأصفر محلول بمشروك بحرية خلف ظهرها . لكنى لا أشم عطرها الطائر .

— شجرة ! . آسفة . أستاذ شجرة . تفضل .

« يوم الأربعاء من كل اسبوع يشهد كوبرى التاريخ زحاما غريبا . رجال وشباب وصبية حفاة مهترئو الثياب يتوافدون فرادى منذ الصباح الباكر ويتراصون بلا ضجة بامتداد الكوبرى يولون وجوههم ناحية الميناء وتجد عيونهم شاخصة فى الفراغ إلى الأمام . تقف الترام فى محطتها خلفهم ولا أحد يترك مكانه إلا فى المساء . اكتشف الناس متأخرا جدا أن بالميناء فرنا يتبع الشرطة يسمى « فرن الإعدام » يتم فيه حرق المخدرات المضبوطة على الحدود والسواحل وفى الأوكار . يوم الأربعاء هو اليوم المحدد للحرق . والنسيم القادم من البحر يهب على الكوبرى مارا بالفرن ويصل للواقفين طيبا ممتزجا بدخان الحشيش المحروق حاملا الراحة والهناء بالمجان . الآن تتلكأ فوق الكوبرى الترام وسائر المركبات »

« ٨ »

جلست فى مكتبى أفكر أن النساء أطول عمرا من الرجال لأن الله اراد أن يطول تعذيبهن فى هذه الدنيا . لماذا يكون الله قاسيا مع أجمل مخلوقاته وأضعفهن ؟ . فكرت أن عقلى يتشقق وخفت ..

رأتنى أم كوثر فبكت . زوجها عبد العال أفندى مات كمدا على هانى الذى تركته الحرب خلفها مزقا ودما على رمال سيناء . كان عبد العال افندى رجلا مميزا فى الحى . وسيما أورث وسامته لفتياته ، مهندما نظيف الملابس يحرص دائما على ارتداء البدلة والكرافتة فى الشتاء والصيف ، هادئا قليل الكلام . كثيرا ما دخل علينا الحجرة فى الليل وأنا أذاكر مع هانى وفتح خزانة كتب صغيرة بمفتاح وأخرج كتابا صغيرا وخرج ، وكان هانى يحدثنى عن معرفة أبيه الواسعة بالشعر والشعراء . نور الصغيرة ابنة كوثر سمراء لأن أباها الذى تركها وطفلين آخرين وسافر الى « دبى » أسمر . أين تقع دبى هذه على خريطة العالم وكيف أدركها الآن ؟ . أحلام تزوجت منذ شهر واحد زواجا صامتا وسافرت مع زوجها الى دبى أيضا . ربما تزوجت أحلام فى اليوم الذى رأيت فيه كوثر فى الترام .

لماذا لم أتوقع هذا كله ؟ . لماذا نسيت أن حربا كبرى قامت فى اكتوبر عام ١٩٧٣ ولابد أنها تركت خلفها شهداء ؟ . هل لأن عبد السلام الذى حوصر مع الجيش الثالث عاد ؟ .

وهل كان عبد السلام جيشنا كله ؟ .

ولماذا لم أدرك أن أحلام وهى تكبر تنضج وتصبح لها دنياها السحرية والسرية أيضا ؟ . اننى ، ولم أشعر بأى غرابة ، ما كدت أدخل الشقة حتى اجتاحتنى برودة ، وأحسست أنى لا أعرف أحدا . شىء سقط منك ووجدته بعد فوات أوان حاجتك اليه هل يعنى شيئا ؟ ولابد أن كوثر أحست بذلك أيضا . جلست وابتسمت وقامت لتعود ومعها أمها تستند على ذراعها ، والصمت بيننا أو فوقنا ، كأن السقف سقط علينا . لم تقل الأم غير « ازيك يابنى » وشرعت فى البكاء الصامت فأنهضتها كوثر وخرجت بها وعادت لتجلس مبتسمة تقول أنها لا تكف عن البكاء . ليست رؤيتى اذن سبب بكائها كما تصورت ، ولا أنها حين رأتنى تذكرت طفولة ابنها وصباه . لم أشأ أن أتحدث مع كوثر عن شىء ، ولم تسألنى

هى عن أهلى ، ولا أظن أنها تساءلت عن سبب زيارتى الغريبة . طال الصمت بيننا فَبَدَأْتُ بالأسئلة التى وقعت فوق رأسى بعدها الاجابات . هل كانت كوثر تتصور أنى أعرف كل ما لحق بهم ؟ . لم أسألها عن راشد . إذا كان الضاحك الأبدى مات ، فلابد أن عاشق أغانى عبد الحليم يمضى بقية عمره الآن يتوجع فى « الوفاء والأمل » . مهزلة باردة أم مأساة سقيمة هذه الحياة . لم يحيرنى أن كوثر ابتسمت لى فى الترام . الأمر لا يزيد عن أنها تذكرت أن هذا الطويل الواقف شارد الذهن جوار الكمسارى كان جاراً لها ذات يوم ، وربما تذكرت أنه قبلها مرة ، فتذكرت زوجها وانتعشت ، وفى أحسن الاحوال كانت فى حاجة فقط الى أن أبادلها الإبتسام .

***

أصابتنى سورة جنس موتورة فأخذت أدور على المكاتب أتلصص على سيقان النساء . أجلس مع من أعرفهن أختلق الأحاديث التافهة عن المسلسلات ، وأطل على صدورهن من خلف الثياب اتشمم عطرهن الرخيص الفاقع ، وأتصورهن فى أوضاع الجماع مع أزواجهن الذين أعرفهم من موظفى الشركة ، أو لا أعرفهم من خارجها . وفى البيت أقمت لنفسى « سراية » من الخلوات الجنسية المتخيلة ، وتقدمت فى إتقانها حتى صرت أنزف قوتى دون أن تلمس يدى حيوانى ...

جاءنى الدكرورى فراعه أن ذقنى طالت وشعرى تلبد من قلة الغسيل .

ــ يجب أن تتزوج ياشجرة

ابتسمت ساخرا

ــ لديك شقة فماذا تنتظر . أنك أفضل منى حالا ؟

لم أرد .

ــ فلوس ؟ . قادمة فى الطريق . جهز نفسك . وصل بيجين الى الاسكندرية كما تعرف وسينتقل بعد غد من مقر رأس التين الى المعمورة

حيث استراحة الرئيس . الشركة ستشارك في التحية على طريق جمال عبد الناصر .

طز . كدت أصرخ في المكروري . انهض فأحمله ألقي به من النافذة الى الطريق المنخفض خلفنا . يعرف عني كل شيء ولا يحتج . لا يطلب شيئا لنفسه . أي نوع من البشر هو ؟ . ليس قديسا ولا ملاكا ولا شيطانا . لا يستحق الشكر ولا اللعنة . ومن أنا بالضبط ؟ . لا أعرف أصلا أن بيجين وصل الاسكندرية . لم أعد أشتري صحفا ، وأغلق التليفزيون كلما وجدت نشرة أو برنامجا اخباريا . أنني أبحث عن النساء ، عطر النساء ، عرق النساء ، سيقان النساء ، شفاه النساء ، وصدورهن ، وأفكر في شراء تليفزيون ملون حتى أرى لحمهن ساخنا . وبيجين هذا هو الذي طرد الله من أرضه حول مساكن البلدية بكوم الشقافة وهو الذي ملأ الأرض بخيام الإيواء . أنا لست حمارا كما تتخيلون . انني أفهم وأفهم وأفهم وأعماني أمل بسيط جدا أن أجد إمرأة أتزوجها فتزداد عزلتي وأعيش لها ولأبنائها ويزداد غبائي . هذا الأمل الذي لا أحصل عليه ودائما أنساه . أنا شجرة محمد علي الطويل الأسمر صاحب الوجه الخاطف ذي العينين العسليتين ، القوى البنيان كحائط ، تتجلط الرجولة في عروق تكاد تشق عنها الجلد وتجعل دمي نارا وتسكب مني بالاشارة ، لدي شقة ، واكثر من خمسمائة جنيه لي البنك ، ولا أم ولا أب ولا أخوة ولا أعرف لي أقارب ، أنا شجرة محمد علي ، لا أجد امرأة . ألا توجد فتاة واحدة شجاعة تتقدم لي فتنهي عجزي وتمد نسياني ؟ . ألا توجد زميلة تقدم لي أختها أو صديقتها زوجة . ما بال النساء يتخلين عن دورهن التاريخي في اصطياد الرجال ؟ . ويريدون أن أستقبل بيجين . اتفوه ! سأستقبل بيجين وأم بيجين .. سأجعل العمال يحيونه . لن أسرقهم هذه المرة . سأجلس في مقهى المحطة ، في الظل ، وسأتركهم في الشارع الواسع ، في الشمس ، بالضبط في ميدان المحطة ، حيث تبتعد العمارات وتصبح المنطقة بؤرة للضوء تسقط فوقها الأشعة في الظهيرة حزمة واحدة عريضة لعينة

كالمجمر ، ولن أتخلى عن المهمة القذرة

***

ـ أخذت الليسانس .

دق الجرس وفتحت الباب فوجدته يقول ذلك فاتحا لي ذراعيه . هذه أول مرة يزورني أحد من أصدقائي في البيت بعد وفاة أمي . لم أعرف هل أحتضنه لذلك أم لنجاحه . تأملته والسعادة تفتح عيني ، وهو ، حسنين كعادته يزداد وجهه احمرارا .

ـ فرحان بك وبنفسي . بنجاحك وزيارتك .

قلت وهو يقف وسط الصالة الخالية فأخذته الى الشرفة حيث كنت وضعت مقعدا قديما ، وتركته وعدت بالمقعد الثاني .

ـ حقا لقد قصرنا في حقك .

قال بنبرة أسف حقيقي . قلت :

ـ لا تشغل بالك . مبروك الليسانس .

كان يتأمل ذقني الكثيفة والتعب الذي لابد رسم خطوطا حول عيني ، والانتفاخ الذي لابد برز تحت جفنيهما السفليين من أثر السهر وكثرة التدخين .

ـ سأحلق ذقني الآن اكراما لك

وفعلتها وعدت من الحمام فوجدته يبتسم محمر الوجه . لابد كان يتعجب من سلوكي . قال :

ـ بيني وبينك لا قيمة له .

ـ من هو ؟

ـ الليسانس .

ضحكنا .

ـ عمري ستة وثلاثين سنة . مرتبي أكبر من مرتب أي خريج جامعة

حديث .. وابتسم — لكن المهم أن انتهيت من الحروب والمؤامرات ومن التاريخ .

وانطلقنا نضحك . بدا منتشيا من اتساع البحر أمامه ورفض أن يشرب أي شيء . طلب أن نخرج الى المقهى .

— جئت أكثر من مرة فلم أجد أحدا بالمقهى ؟

— لماذا لم تمر على ماجد في الصيدلية أو تأتي هنا ؟

سكت وبدا متحيرا في الإجابة . قال وهو يبتسم ويحمر وجهه .

— لا أعرف .

ابتسمت وشحبت ابتسامته . نهضنا نتصرف . قلت :

— لم نعد مضبوطين على الساعة المصرية .

لكننا ما كدنا نجلس بالمقهى حتى رأينا ماجد قادما من بعيد فقال حسنين متهللا كطفل :

— ها نحن نعود الى مواعيدنا المضبوطة بلا اتفاق .

بدا حسنين متألقا بحق . ليس حسنين كما قال عنه عبد السلام . حسنين قانع وراض يحب حالة الرضى ويبعد عن نفسه وجع الدماغ ! كثير من الناس يحبون السير في الطرق الممهدة حتى لو كانت لا تنتهي . المهم أن تكون ممهدة وليس مهماً بلوغ نهايتها . وربما الأمر كما قال عبد السلام . فبعد سن الثلاثين تخبو شعلة الطموح ، ويستسلم الإنسان الى الوضع الذى انتهى اليه ، ولا يستطيع الخروج عن ذلك إلا بالجنون .

— حصل حسنين على الليسانس .

قلت لماجد بعد أن احتضن كلا منا بفرح . هتف قبل أن يجلس :

— هنا . سيبدأ الآن التاريخ الحقيقي . مبروك .

ثم اندفع يضحك ويقول :

— لا يسألني أي منكم عن القاهرة وكلية العلوم .

نظرت الى حسنين فوجدته ينظر الى . ذكرنا ماجد بشيء كنا نسيناه ، لكننا هتفنا في صوت واحد :

— وجدتها ؟ .

— طبعا .

— ياولد .. لابد أنها لم تصدق ما فعلت .

كنا نتكلم أنا وحسنين كشخص واحد وماجد يرد علينا .

— وحتى الآن لا تصدق . طاولة ياحسن .

هتف ينادي الجرسون .

— انتظر . احكي لنا أولا كيف وجدتها ، والى أين وصلت معها .

خلع ماجد نظارته ومسح زجاجها وقال وهو لا يرفع عينيه إلينا .

— كان ذلك جنونا . لم أجدها ولم أصل الى أي شيء عنها . أدرس الآن اللغة الألمانية في معهد جوتة . سأسافر الى النمسا .

***

أخبرنا ماجد أنه أشترى سيارة فيات نصف عمر وسيأخذنا في جولة ليلية بالاسكندرية ، خاصة وأن الدكتور موسى الصيدلي الذى يعمل عنده هدأت نفسه بعد أن ضمن عملا في الكويت وسيسافر اليه بعد شهر وصار يعمل بجدية ويعامل الزبائن بمرح . وجدت نفسي أحكي لهما ما حدث بالعمارة مؤخرا . فمنذ اسبوعين سمعت ضجة على السلم . دق قلبي . قلت ربما جاء السكان . من صيف العام السادس والسبعين الى صيف العام التاسع والسبعين هذا لم أر ساكنا واحداً ، ولا أعرف ماذا يفعلون بالخارج كل هذا الوقت . ثلاث سنوات أغلق باب العمارة في المساء بالقفل والجنزير . وكما توقعت ، فتحت فرأيت عمالا يحملون أثاثا جديدا . وقفت قليلا أتسمع الخطوات الصاعدة والضحكات المنطلقة حتى رأيتهم أمامي . شاب وفتاة وامرأة تبدو أمها خلفها . الحقيقة خجلت . كنت جريئا أكثر مما ينبغي ، وتضايقت من ذقني ، لكن هذا

ما حدث . لم أدخل الشقة وبقيت واقفا عند الباب .

ـــ أنت تسكن هنا ؟ .

تساءل الشاب الذى رأيته كثيف شعر الرأس جدا .

ـــ أجل

ـــ أنت الأستاذ شجرة إذن ؟ .

قالت الفتاة باسمة وهى ترفع عينيها إلىّ . ادركت أن عبده الفاكهانى هو الذى أخبرهم باسمى ، ولابد أعطاهم مفتاحا لباب العمارة ، وفطنت الى أنه هو الذى أعطى رجال المباحث مفتاحا ليلة القبض علىّ . ربما لذلك بدا خائفا منى بعد إطلاق سراحى ، وربما أيضا لأنه تصورنى شيئا خطيرا ، لكن هذا حادث قديم ولا يجب أن يعود إلى ذاكرتى ، ثم أنهم لم يكونوا ليعجزوا دون مفتاح الفاكهانى . قلت :

ـــ أجل .

ـــ لا أحد معك يا ابنى ؟

تساءلت الأم فأجبت :

ـــ أجل .

ـــ إذن ستؤانسنا .

قالوا معا وضحكوا فابتسمت لكن ارتفع الدم إلى وجهى وأحسست على الفور أنهم قطيع من افسج . لا أعرف ماذا حدث لعواطفى بالضبط .. امضيت اليوم أكاد أرقص فى الشقة . مهما كان أمرهم فهم بشر سيجعلون لهذه العمارة الضخمة معنى . ثم أننى رأيت الفتاة يشحب وجهها بعد أن ضحكوا . كان اليوم جمعة وكنت أهيىء نفسى للخروج للصيد . لقد اشتريت عدة لصيد السمك لم أستخدمها حتى الآن . حتى ولا ذلك اليوم ، ربما يلهينى ساستخدمها يوما . خلعت ثيابى وارتديت المايوه لكننى لم أنزل . صرت أخرج الى الشرفة كثيرا وأدخل فأسمع حركة ترتيب الأثاث فوق فأعود أخرج إلى الشرفة وأرفع عينى إلى أعلى

فأجدهم أو أحدا منهم يطل من النافذة أو الشرفة التى فوق . أخجل وأكاد أختفى إلا أن كل من اصطدمت عيناى بوجهه يحيينى بيده . فكرت أنى دخلت فى طور الجنون ، وفكرت أنهم مثلى . كان عليهم على الأقل أن يستنكروا عريى خاصة وأن شرفتهم تنحسر نصف متر عن شرفتى مما يجعلهم يرون جسمى كاملا . فكرت أنهم ربما كانوا سعداء حقا ، ووجدت نفسى أتساءل عن سر سعادتى . لا يمكن أن يكون امتلاء شقة واحدة بسكان سببا لنشوتى المفاجأة . فى الأمر حماقة من نوع ما . أحسست بضيق . فى المساء ذهبت الى ماجد فلم أجده فى الصيدلية . اشتريت دهانا من الدكتور موسى لتخفيف آلام الروماتيزم الذى بدأت أشعر به . أنام عاريا والشقة خالية . الأثاث يتنفس ويساعد على الدفء . سمعت أبى يقول ذلك مرة . لكن المرأة تساعد أكثر . انها تنفث الدفء كقاطرة . أعرف ذلك ولم أجربه . فكرت أنى سأعيش وحيدا حتى الموت ، وفكرت أذهب الى عبده الفاكهانى ليزوجنى . أجل . يبيعنى امرأة ويشترينى ! .

ضحكوا كثيرا من حكايتى التى اغفلت منها الكثير من الأحاسيس التى كتبتها الآن إلا أن العبارة الأخيرة أفلتت منى . قال ماجد أن عبده الفاكهانى لا يهتم بهذه الأشياء الصغيرة . إنه يضارب فى أراضى العجمى ، واشترى مؤخرا خمسة افدنة فى شاطىء « أبو يوسف » وخمسة فى شاطىء « أبو تلات » . عرف ماجد ذلك من زبائن الصيدلية من البدو الذين صاروا يركبون البيجو والجيب ويعيشون فى الفيلات بعد أن قسموا أراضيهم المزروعة بالتين والتى ورثوها بوضع اليد عن أجدادهم وباعوها للشركات السياحية وللعائدين من الخارج وللتجار ، والذين يتعجبون منه كيف لا يبيع فى صيدليته المقويات الجنسية ولا يعرف كيف يحضّرها .

ـــ سيأتى يوم لا نذوق فيه طعم التين . كارثة .

قال حسنين بهدوء ففجر ضحكنا ثم سألنى :

— هل تفكر حقا فى الزواج؟
— طبعا .
— اذن اكمل لنا الحكاية وسنزوجك .

عدنا نضحك من جديد . لم أتضايق . أحسست ببراعة الموقف كله . قلت أننى أول أمس لم يواتنى النوم . إنتهى الإرسال التليفزيونى وأنا أفكر فى الرقصة الغربية التى عرضها برنامج « اخترنا لك » حيث انتهت وأيادى الراقصين من الرجال تتوسط بالضبط مؤخرات الراقصات فى لقطة قريبة كادت تقفز من الشاشة الى وجهى . كل كف مفتوحة فوق مركز المؤخرة . أى جرأة اصابت التليفزيون هذه الأيام ؟ . إلا أن ذلك لم يكن كل شىء . قبل الفجر بقليل سمعت صوت ارتطام شديد فى مياه البحر . ارتطام متكرر . فكرت أن سفينة جنحت الى البر . أدركت استحالة ذلك لأنها لابد تنحط فى الرمال قبل الشاطىء بكثير . فتحت النافذة فقابلنى هواء كصفعة بعرض الدنيا . هواء ثقيل لكنه منعش . رأيت الموج يتقلب يحمل أشياء معتمة . أشعلت نور الشرفة ووقفت فيها . رأيت مقاعد طائرة هابطة من أعلى والواح خشب ومراتب وثيابا وحقائب كبيرة وكل قطعة تتوهج لحظة فى الضوء المنبعث من الشرفة ثم تختفى فى الظلمة أسفل وأسمع صوت ارتطامها بالموج . هذا هو الأثاث الذى رأيت العمال يصعدون به منذ أسبوعين . كان من الطبيعى ألا أتردد . أن أصعد . لم أشعر بالخوف ولم تطل دهشتى . لا يفعل ذلك إلا غريب . توقعت معركة فأخذت سكينا . صعدت فوجدت باب الشقة مفتوحا فدخلت على أطراف أصابعى ووجدت الشاب نفسه الذى قابلته مع الفتاة وأمها يواجهنى عاريا إلا من مايوه وشعره الكثيف منكوش يقف كشعر القنفذ .

— أى خدمة ؟ .

سألنى جاحظ العينين يطل منهما الشرر .

— آسف .

أجبت وانسحبت .

***

— ما رأيكما أن نسهر الليلة فى القبارى . الحاج لقمان يقيم سرادقا انتخابيا كبيرا يستحق الفرجة .

كانت الساعة قد دخلت فى العاشرة ، ولم يكن بقى من حكايتى الا صدى باهت يجعل صديقى يقطعان اللعب احيانا ليبتسما دون تعليق . استنفدنا التعليقات التى دارت كلها حول فكرة واحدة تقريبا ، تصرفات الناس الغريبة هذه الايام . لكنا ضحكنا كثيرا حين قال حسنين لى « طالما قرر أن يتخلص من الأثاث كان أعطاه لك أو سألك هل تعرف أحدا يحتاج الى أثاث ؟ » .

ولم يجد ماجد الذى وعدنا بسهرة فى المدينة أن نسهر فى القبارى . أشار الى حركة السيارات الملاكى القادمة من العجمى وقال« نسهر فى بحرى مثل أصحاب السيارات » . وكنت أنا كعادتى غير مهتم بالانتخابات . أعرف أن السادات حل مجلس الشعب ، وأن هناك انتخابات جديدة ، وأن هناك معارضة قوية لاتفاق كامب ديفيد وأن الصحف تشن على المعارضين حملة شرسة ، إلا أنى لم أضبط نفسى متلبسا بقراءة التفاصيل ، كذلك لم أخض مع أحد فى الحديث فيما يجرى فى البلد . أرى لافتات كثيرة فوق المحلات وفى أعلى الشوارع فى طريقى الى العمل أو البيت تؤيد كلها الحاج لقمان ولا أهتم . لا أذكر أنى أدليت بصوتى فى أى انتخاب أو استفتاء ، وأنا فى الأصل لا أحمل بطاقة انتخابية ، وإن كانت البطاقة الانتخابية لأبى لم تزل بين بعض ما احتفظت به من أوراق بعد موته . ثم أننى أقلعت تماما عن جرائمى . فالسادات لا يزال يأتى الاسكندرية فى السادس والعشرين من يوليو بالهليوكبتر ، وزواره من رؤساء الدول لا يأتون إلا فى الشتاء حيث ينتقل الى أسوان معظم الوقت حتى فكرت أنهم لا يأتون لزيارته بقدر ما يأتون للتمتع بشمس أسوان واغتنام الفرصة للعلاج من أمراض الروماتيزم ، بل وربما كانت هذه هى كل المسألة كما أن الشركة لا تزال تساهم فى

احتفالات عيد العمال بوفد محدود من أعضاء النقابة ، ويوم زيارة بيجين للاسكندرية نفذت المهمة كاملة ولم أستقطع مليما من العمال .

— من هو الحاج لقمان ؟

وجدت نفسي أسأل دون قصد . قال ماجد :

— لا أحد فى الاسكندرية لا يعرفه . أنا شخصيا تشرفت بمعرفته .

وقفت سيارة مرسيدس سوداء أمام الصيدلية ونزل منها السائق ليشترى خمس علب جيفرين . رأيت الحاج لقمان بالمقعد الخلفى وحيانى بيده . عرفته من صوره التى تملأ الطرقات فبادلته التحية ، ورأيته ينزل من السيارة . تصورت أنه سيدخل الصيدلية يحدثنى عن الإنتخابات لكنه دخل الزقاق الجانبى وعاد يزرر بنطلونه من الأمام قبل أن يركب السيارة مرة أخرى .

ضحكنا . كانت دهشة حسنين كبيرة من شراء خمس علب جيفرين . تخيلت الرجل مريضا إلا أنى عرفت أن الجيفرين منشط عام له تأثير فعال على الجنس . وقال حسنين مخاطبا ماجد :

— أنت رأيته مرة واحدة . أنا رأيته عشرات المرات من قبل . كان يبيع مسروقات خفيفة من الجمرك مثل البلوفرات والجينز والترانزستور بمقهى « اللنش » بالمفروزة ثم اختفى منذ ثلاث سنوات تقريبا ليعود حاملا لقب حاج ومعروفا كأكبر مستورد لحديد التسليح فى مصر كلها . إنه شىء يستحق الفرجة خاصة أنه يخطب فى الناس وأنا أعرف أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة . هيا نذهب ولن نخسر شيئا . اذا لم يعجبنا الحال ننطلق الى بحرى .

***

ركبنا سيارة ماجد . طول الطريق أفكر فى الجنون الذى أصابنا فجأة . المسألة لا تعدو نوعا من الهزل ، ولا تختلف كثيرا عن لعبنا الطاولة ،

وكدت أطلب من ماجد أن يستمر فى طريقه الى بحرى لكننى رأيت الاضواء الصفراء والبيضاء تحيل الليل فى شارع سيدى القبارى الى ظهر ، وسرادقا يمتد بطول نصف الشارع ، وزحاما هائلا من البشر فأردت فعلا أن أرى الحاج لقمان هذا الذى يجمع له هذا الحشد .

بصعوبة وجد ماجد مكانا لسيارته فى أحد الازقة . صرنا نشق طريقنا بالأكتاف والأيدى حتى وصلنا الى باب السرادق . الصدفة ، الصدفة وحدها ، جعلتنى اتقدمهما ونحن ندخل .

— وصل رجال الدخيلة . وصل رجال الدخيلة .

كان الهاتف يرفع ذراعيه عاليا يشير بإحداهما الينا وبالأخرى الى المنصة التى يتوسطها الحاج لقمان وعلى جانبيه عدد كبير من الرجال ذوى الشوارب اللامعة والجلاليب القاتمة السابغة . الحاج لقمان يرتدى بدلة سوداء مثل وجهه تلمع مثل وجهه أيضا الذى بدا مدهونا بزيت . والذى هتف يصفنا برجال الدخيلة هو الذكرورى نقيب العمال فى شركتنا . إشرأبت أعناق الجالسين فوق المنصة تطل علينا ، وحيانا الحاج لقمان بهزة خفيفة من رأسه الضخم ، وأنا أفكر فى الذكرورى ، والذى أوجده هنا ، وصلته بالحاج لقمان .

جعل الذكرورى يوسع لنا طريقا إلى الصف الأول . تلبستنا حالة الوقار اللائق برجال الدخيلة كما قال . سمعت ماجد يقول أننا لن نخرج من هذا الفخ . ما كدنا نجلس حتى أخذنى الذكرورى من ذراعى فمشيت خلفه . سحبنى واتصعت له فبدا أمامى طفلا يسحب رجلا أعمى . خلف المنصة قال .

— انتظر هنا لا تتحرك .

وقفت غير مبال على الأرض المفروشة بالرمل . حاولت قراءة الكلمات المنقوشة على قماش السرادق فى تكوين زخرفى متداخل وصعب عاد الذكرورى فى يده مظروف صغير منتفخ .

— الحاج يرسل إليك هذا المبلغ وعليك أصوات الدخيلة أعرف أنك قادر على ذلك .

هل أقول أنى أصبحت آلة تمد يدى حيث توجد نقود ؟ . أثبت عكس ذلك يوم بيجين . أخذت المظروف وكدت أضحك من المذكورى الذى يعرف عنى ما لا أعرفه عن نفسى . قال :

— خمسمائة جنيه كاملة .

وقفت صامتا .

— سينجح وستسقط كل المعارضة . اطمئن .

كنت أفكر هل اقتسمها مع حسنين وماجد . هل أخبرهما ؟ لكنى قلت بجرأة :

— هذا مبلغ صغير بالنسبة لحى كالدخيلة .

ولأول مرة أكتشف أن للمذكورى نظرة تعب .

— إذن تعيدها .

قال فارتبكت رغم أنى لو نفخته لطار فى الفضاء . قلت :

— قل للحاج مبروك . أصوات الدخيلة فى جيبه .

أخرجت النقود من المظروف وحشرتها فى جيب بنطلونى . ماكدت أبتعد عنه لأعود الى السرادق حتى أوقفنى وهمس فى اذنى :

— الحاج سيعطينى شقة .

***

أخذتنى قدماى الليلة إلى الشارع الذى هجرته . رأيت بيت الياسمين مظلما تماما . لم تعد هناك رائحة يتقدم نحوها أنفى أو تصلنى . ذبلت الزهور وأوراق الشجر صارت متربة سقط معظمها على الأرض جوار السور وجف وانتشر فى عرض الطريق ودسته بقدمى فسمعته يتكسر تحتها كأنه قشر الفول ... على البوابة رأيت قفلا كبيرا ، وأضاء لى عمود النور الوحيد فى الشارع ، والموجود أمام بيت عبد السلام ، مواسير الصرف على جدار بيت الياسمين الذى سقط ملاطه فى أكثر من موضع ، ونشعت المياه فيه وتكلست فوقه الرطوبة ، فرأيت ابن عرس فوق ماسورة يجرى صاعداً ...

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

« تزوج شاب وفتاة . جاء أهل العروس فى الصباح لزيارتهما فلم يفتح لهما الباب أحد فكسروه ليجدوا الشاب فوق عروسه لا يستطيع الفكاك منها وكأنهما ملتصقان ببعضهما ، وبكيان لمكابدتهما طول الليل يحاول كل منهما التخلص من الآخر . لفوهما فى ملاءة وحملوهما ليعودا من المستشفى منفصلين يدخلان شقتهما فى منتصف الليل . بعد يومين تكرر الحادث فصرخ الشاب مستنجدا بالجيران الذين حملوهما ملتصقين ليعودا منفصلين بعد منتصف الليل . صار الناس يمشون تحت الشقة العالية يشيرون اليها ويتهامسون ويضحكون . مر شهر دون أن يحدث شيء ولم يعرف أحد أن العروسين فقدا القدرة على الاتصال لكنهما فعلاها ومزق كلاهما وجهه بأظافره ندما ورعبا واضطر الشاب للصراخ مستنجدا بالجيران من جديد فحملوهما الى المستشفى ليعودا منفصلين عند الفجر . فى الصباح وقف الشاب وحده فى البلكونة يصرخ ويلطم خديه وينظر من الدور الخامس الى الأرض يكاد يقفز . ألقت عروسه بنفسها ورأى جسدها وهو يرتطم بالأرض ويتحطم مرة واحدة كأنها انخلقت »

« ٩ »

فتحت باب الشرفة ودخلتها فاحتوانى النور الذى يمتد أمامى باتساع هائل فاجأنى بإحساس السابح فى الفضاء اللانهائى المدى . هبطت عيناى لأرى البحر بساطا من المخمل اللازوردى أحسست بنعومته وأنا أقف

حافيا فوق البلاط . رفعت عينيّ فوجدت قبة السماء قريبة قريبة من فرط صفاء زرقتها تدفعنى للقفز لألمسها بيدى . هذا يوم لا أذكر أنى رأيت مثله وربما عاد الله ليعيش معنا كما كان يفعل قديما ونحن أطفال .

أخذت شصى وسلتى الخوص وما قد احتاجه من صنار وخيط . لم أكن مستعدا للصيد ولا اشتريت « طعما » . قلت سأجد من أشترى منه على الشاطىء . يوم كهذا لا تتأزم فيه الأمور ..

ما كدت أغلق باب شقتى واستدير لأنزل حتى رأيت طفلا بديع الوجه يصعد بصعوبة واضعا يديه على ركبتيه ضاغطا عليهما بالتبادل كلما صعد درجة . كان يرتدى جلبابا أبيض ، وأطلت الدهشة من عينيه السوداوين حين رآنى فوجدت نفسى أبتسم . قبل أن أسأله ماذا يريد ، وما الذى أدخله العمارة ، سمعت صوت امرأة تناديه من أعلى هاتفة « بسرعة يازياد » قال « طيب » وزفر بضيق جميل ناظرا إلىّ وابتسم كأنه يشهدنى على احتجاجه وتعبه وارتفاع السلم . عَمُرَت اذن إحدى الشقق بسكان وهذا الطفل البديع الذى نزل فى الصباح الباكر ما فعل ذلك إلى كى أراه فى عودته وتكتمل بهجة اليوم بالمسرة . لكن متى دخل السكان العمارة ونقلوا أثاثهم اليها ؟ .

كيف لم أحس بذلك ؟ .

ووجدت نفسى أنزل قافزا الدرج كفرس .

فى المساء تغير الجو وشاعت فيه البرودة فأدركت أننا ودعنا الخريف نهائيا ، وما هى إلا أيام وتهطل الأمطار الضالة التى يبدو من كثافتها جهلها بأن فوق الأرض بشراً .

ـــ واضح أنك اصبحت صياداً ماهراً .

قال ماجد الذى ذهبت إليه فى الصيدلية أعطيه بعضا مما اصطدته . كنا نجلس حول مكتب صغير بأحد الأركان .

قلت :

ـــ أفكر فى شراء ماكينة صيد إضافية .

كان هذا صحيحا ، فالمنطقة خلف المطار صخرية عميقة المياه يكثر فيها السمك فى الأيام الحارة أو الدافئة . أرتاح وأنا أناور السمك وأود لو اغتصبت قلب البحر . الصيد بالنسبة لى ليس هواية أو تسلية . ومادياً لست فى حاجة اليه فأنا لا أعول أحدا يحتاج لكل ما أصطاد ، انما أنا أتشاجر . اليوم لم أشعر بذلك بنفس قوة الأيام السابقة .

ـــ أعذرنى لا أستطيع الحضور الى المقهى الآن . سافر الدكتور موسى الى الكويت ولا أحد يساعدنى .

ـــ أنا أيضا لا أذهب ـــ وابتسمت ـــ اليوم رأيت سكانا جددا .

ـــ حقا ؟ . شىء رائع . أنت بطل لتعيش وحدك فى عمارة خالية كل هذا الوقت . المهم أن لا يلقوا بالأثاث فى الماء .

ضحكنا . دخلت امرأة متوسطة العمر ترتدى فستانا رخيصا وتحمل طفلا على صدرها لا يكف عن السعال والانتفاض كإيقاع الطبل وهى تحيطه بذراعيها بقوة خشية السقوط فنهض ماجد يقابلها من خلف الفاترينة . بدا أنها لا تستطيع أن تمد يدها بالروشتة التى تمسك بها بين أصابعها فمد هو يده وتناولها . تنقل أمام الفاترينات العالية يحضر لها الأدوية بينما انجذبت أنا الى وجه الطفل الذى يقابلنى من فوق كتف أمه . وجه صغير شديد الشحوب يخرج من فمه لسان مزهوق .

وسمعتها :

ـــ طيب خذ الاثنين جنيه ؟ .

رأيت ماجد يهز رأسه ويبتسم ويمد ذراعه يربت بها على ظهر الطفل .

ثم يضع الأدوية فى كيس ويمد ذراعه ليعلق الكيس فى أصابع الأم التى استدارت تنظر اليّ بوجه خجول وتسرع بالخروج .

— إسمعى .

ناداها فوقفت عند الباب واستدارت .

— نعم .

— لا تصرى عليه . خذيه إلى مستشفى الشاطبى أحسن .

— حاضر .

قالت واختفت وعاد هو ليجلس صامتا لمحظات .

— ليس معها ثمن العلاج وكتب لها الدكتور أدوية تهدم جملا .

رفض أن يأخذ منها « الإثنين جنيه » الذى بدا أنها لا تملك غيرهما . تذكرت الخمسمائة جنيه التى اخفيت أمرها عنه وعن حسنين . فكرت أن أغادر المكان فورا . إلا انى سألته .

— أليس هناك أخبار عن حسنين . ألا يزورك ؟ .

انطلق ماجد يضحك فجأة .

— هه . زارنى منذ أسبوع يشترى بعض أدوية . أعطيتها له هدية ومعها بعض البارفانات . لقد تزوج حسنين .

— تزوج ؟ !

— أجل وأود زيارته لكن لا أجد الفرصة .

— لكنه لم يخبرنا .

— هو نفسه لم يكن يعرف . وجد نفسه فجأة يعيش وحده مع أمه بعد زواج آخر أخوته البنات فتزوج .

— والشقة ؟ .

— فى نفس شقة أمه .

وقام يلبى طلب عدد من الزبائن دخلوا معا وتركنى أفكر فى أسئلتى الحمقاء التى انزلقت من فمى . إذن حل حسنين المشكلة فى أسرع وقت . لماذا أسميها مشكلة ؟ .... أخذت أتأمل جريدة الاهرام الملقاة باهمال فوق المكتب وعناوينها العريضة تتحدث عن الانفجارات فى إيران وقرب وصول الخمينى الى طهران . عاد ماجد باسما . ما كاد يجلس حتى دخل شاب يرتدى بنطلون جينز وجاكت من الجلد الأسود نظر الينا ووقف مرتبكا . تقدم ماجد ناحيته فإذا بالشاب ينحنى برأسه ليهمس له بشىء . ابتسم ماجد وقال :

— آسف . لا أبيعها .

خرج الشاب ينظر الى الأرض . عاد ماجد يهز كتفه ويقول :

— يسأل عن حبوب هلوسة .

لم يكن شكل الشاب يوحى بذلك مما جعلنى اندهش بحق . قال ماجد أن المسألة ليست بالمظهر ، وربما وصفها أحد له . تذكرت عبد السلام حين قال أن ماجد يحمل وجه طفل لم يتغير منذ كان طالبا معه فى الثانوى فالسنوات لا تترك أثرها عليه ، شعره الأسود أسود كما هو وناعم ، وجهه الخمرى لم يزل يشرق بالابتسام ، وكل ما تغير فيه زيادة طفيفة فى الوزن . لو مشى ماجد وسط عاصفة ترابية لخرج منها دون أن يعلق به غبار ، وكلما تراه فكرت أنه طفل اعتنت به أمه لتوها واطلقته فى الطريق .

— هل تتقدم فى اللغة الألمانية ؟ .

تساءلت فابتسم .

— تركت الألمانى . تعرفت إلى امريكية قالت أنها ستساعدنى فى السفر إلى امريكا . قابلتها صدفة فى صيدلية صديق لى بالعجمى . قالت لماذا أدرس الألمانية وإنجليزيتى ممتازة ، الأفضل أن أطور ما عندى ولا أبدأ من جديد ، وأبدت استعدادها لتساعدنى على الالتحاق بإحدى المعاهد الامريكية أو معامل الأدوية الكبرى . إنها فى القاهرة الآن . زوجها جاء

أصلا من أجل بعض المشاريع الاستثمارية وسيسافران فى يناير القادم . أرسلت لى من القاهرة خطابا تؤكد ما قالته .

يتكلم جادا وبثقة ، وأنا أفكر ما الذى يدفع ماجد إلى السفر ، وأدور بعينى على علب الأدوية المرصوصة مختلفة الألوان والأحجام فى الفاترينات الزجاجية الدائرة مع الجدران . هل حقا توجد أمراض بعدد هذه الأدوية وأنواعها . وكم يكون عدد المرضى فى العالم ؟ . هل يوجد أصحاء حقا أم أننا نعيش فوق جراثيم وميكروبات لا يقتلها حر ولا برد وتنتظر دائما قابعة فى الأركان ؟

***

إنفتحت بوابات السماء عن المطر المتأخر الذى لم يكن منه بد . تكورت الاسكندرية فى الليل الذى تمدد فوق النهار ، ونسيت حسنين وزيارته .. صرت أخرج فى السادسة صباحا كأننى أخرج فى منتصف الليل . أمشى جوار الجدران باعدا بقدمى ما استطعت عن الأوحال تطاردنى المياه الساقطة من المزاريب فاستند بكفى على الجدران يكاد صدرى ووجهى يحتكان بها ماشيا ما استطعت على سنى حذائى وأكاد أنزلق اكثر من مرة . أرى الناس تفعل مثلى فيبدو لى أننا نستيقظ لنبدأ يوما كالحشرات ...

لم أنقطع عن العمل . ماذا أفعل فى بيت انقطعت عنه الكهرباء فلم يعد فيه غير شموع واهنة ؟ . كان العمل قليلا والكثيرون تعطلهم الأمطار . أجلس فى غرفتى أقرأ الصحف التى تتحدث عن هذا الشتاء الذى يهاجم الإسكندرية كاسحا فيغلق البوغاز ويعطل دخول البواخر وتفريغ شحناتها فتمنيت لو دخلنا فى مجاعة ، وأحببت أن أرى الناس تأكل أولادها بعد أن تشح القطط والكلاب ! .

تحدثت الصحف عن التغيرات التى حدثت فى الغلاف الجوى حول

الأرض نتيجة للانفجارات الذرية التى تجريها الدول الكبرى علنا والصغرى سرا ، وعن تنبؤ بعض العلماء بعودة عصر الجليد واندثار الحضارة الحديثة ، وعرض التليفزيون صورا للأمطار فى أوربا ، والثلوج التى غطت الشوارع والبيوت ، والقطارات التى تصادمت ، والموتى الذين قتلهم البرد ، وتحدث الموظفون عن غضب الله على أمة صارت فيها النساء عرايا وصار فيها الرجال لصوصا ، الا أن موظفا عاد مؤخرا من ليبيا قال أن القذافى هو السبب لأنهم هناك يستمطرون السحب فى غير أوانها .

قال أنه شاهد ذلك بنفسه حيث تصعد الطائرات تسلط على السحب مادة كيماوية فتذيبها على المناطق الصحراوية المزروعة . بل أكثر من ذلك تبحث الطائرات عن السحب فى المناطق البعيدة ، وتدفعها أمامها كالغنم الى المنطقة التى يراد ريها حيث يتم إذابتها مطرا . هذه العملية العجيبة تتسبب مع الوقت فى إفراغ شمال افريقيا من السحب ، فتندفع سحب غاضبة من أقرب الأماكن الينا تملأ هذا الفراغ الهائل ، ولا أقرب الينا من أوربا ، والنتيجة أننا نكاد نغرق .. العالم مثل الأوانى المستطرقة اذا مات واحد فى اليابان ولد واحد فى الولايات المتحدة !! ..

كان يدور بين المكاتب طول النهار بهذا الكلام ، ويقضى أكثر وقته فى البوفيه حيث يفضل الموظفون أيام البرد الانتقال اليه وتناول الشاى فيه تلمسا للدفء فى مكان ضيق ، وكان جادا وحاسما كأنه يروج لنظرية ابتدعها . يضحك الموظفون فيسوق الحجج والبراهين . يقول أن أصغر طالب فى الإعدادى يعرف أنه اذا وجد منخفض جوى اندفع الهواء يملأه فيكون حر أو برد حسب الريح القادمة . لقد خلق الله العالم متوازنا ولا يفسده إلا بنى آدم ، وأقرب مثل على ذلك هو السد العالى الذى تثار حوله ضجة كبيرة الآن . لقد تسبب السد فى نحر الشواطىء أى طغيان للبحر على البر . قديما كان الفيضان وطمى النيل ينسكبان فى البحر المتوسط فيمنعان هذا الأذى . كان الطمى يخفف من قوة الموج وملوحة مياه البحر . الآن يتمتع البحر بحرية ضرب البر ولا يجد من يتصدى له .

ولن تمر خمسة أعوام حتى تختفي رشيد ودمياط من الخريطة . نفس المشكلة ستحدث لوادي النيل نفسه الذى هو الأرض الزراعية التى كونها الطمى المترسب عبر ملايين السنين ، وكان يأتي كل عام ليعادل الرمال القادمة مع الريح من الصحراء سواء من ناحية الغرب أو الشرق . الآن تتآكل الأراضى الزراعية على جانبى الوادى وتغزوها الرمال ولا تجد طمياً كل عام يتعادل معها ، ولن تمضى مائة سنة حتى تعود مصر كلها صحراء كما كانت ويختفي وادي النيل . الطبيعة دائما طيبة معنا ونحن أوغاد زنى .

فى لحظات فكرت أن كلامه حقيقى وخفت . سألت نفسي لماذا ؟ لا تهمني دمياط فلن اشترى منها أثاثا لزواجي الذى لا يلوح فى الأفق ، ولا تهمني رشيد فأنا أصطاد السمك بنفسي خلف المطار ، ولا تهمني البلد كلها لأني لن أعيش مائة سنة ، الا لو عاندني الله ، ولا احسب أنه يفعل ذلك فأنا يتيم ...

صرت أعود الى شقتي فى العصر كأني أعود فى منتصف الليل . أخلع ثيابى المبتلة وأنا أرتجف من البرد ولا يستجيب لى نور الكهرباء . أشعل الشموع وانظر الى التليفزيون الصامت فى كآبة . اسمع حركة الاطفال وضحكات العائلة الجديدة فى الدور العلوى فافكر فى هذا النوع الجديد من البطولة الذى سيضاف الى بطولتى السابقة اذ سأحيا منذ الآن وحيدا وسط أسر متوالدة . افكر كيف حدثني أبي مرة عن شتاء كهذا غرقت فيه القرية وتهدمت بيوتها ذائبة فى الماء فصار الوحل حتى الركب واشتعلت الحرائق كأن الدنيا تمطر نارا وحجارة ، وانهدم الجامع فوق من تحصنوا فيه ، ولم تكن تمر ساعة دون عويل على بقرة نفقت ، أو عجوز تجمد ، أو طفل مات . قال أن أسرته نجت جميعها لأن جده — شجرة — أغلق الباب عليهم منذ البداية وقال ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

كنت صامتا بالليل والنهار . أسمع وأتفرج على وجوه الناس شاردة العيون وأشعر أن هذا الشتاء لن يمر بسلام .

***

لم يحضر الجناز سوى عدد قليل . أعضاء النقابة وعشرة أو أقل من العمال وموظف واحد هو أنا والحاج لقمان الذي جاء جلسته جوارى فصرت منكمشا . له فى عنقى خمسمائة جنيه لم أفعل له بها شيئا . لكنه نجح فى الانتخابات ، وكان يعرف أنه سينجح ، ولا أعرف لماذا لم يوفر أمواله . لابد أنه بعثر الكثير منها . اذا كنت أنا أخذت خمسمائة جنيه كممثل لحى صغير كالدخيلة فكم أخذ ممثلو العامرية والورديان والمفروزة ومينا البصل ؟

فى البيت استقبلنا شاب لا يختلف كثيرا عن الذكرورى . عرفت أنه أخوه . جلس معنا فى حجرة صغيرة صامتا متورم العينين من البكاء . بيننا جلس الشيخ مذهولا يلملم كثيراً جبته المبتلة الذيل فوق وحول ركبته ، ويقرأ مرتعش الصوت والكفين والأذنين . فى الوسط عدد من الشموع فوق منضدة رخام لانقطاع التيار الكهربى ، ونسمع صوت رخات المطر فى الخارج فيقول البعض منا « اللهم الطف بعبادك » بدا لى الحاج لقمان اكثرنا حزنا .

— كان الذكرورى زينة الشباب .

— كان يحبك ياحاج ولا اعتراض على أمر الله

قال الحاج لقمان ورد أخ الذكرورى عليه .

ما الذى جعل الحاج لقمان يذهب إلى « أم زغيب » قرب العامرية ليتفقد مخازن الحديد العارية فى الخلاء وسط الصحراء فى هذا المطر الداهم ولماذا صحبه الذكرورى ؟ ما هو نوع الثعبان الذى قفز فجأة من مخبئه ليختار الذكرورى من بين الكوكبة التى تصحب الحاج لقمان ويلدغه فى ظهر يده ؟ . قال الحاج أنهم وقفوا مذهولين وهم يرون الذكرورى يصرخ ويتلوى على الأرض وقد تشنجت أصابع كفه اليمنى مفتوحة على اتساعها وقد أمسك المعصم بكفه اليسرى فى الوقت الذى بدأ الثعبان الطويل الأصفر المشرب بالخضرة يعود زاحفا على مهل لا يدرى ماذا فعل أو لا يهتم . قال الحاج أنه لم يتوان فى حمل الذكرورى إلى مستشفى العامرية فى

سيارته التي قادها بنفسه إلا أن الدكرورى مات فى الطريق . إبيضّ جلده وبانت عظامه رغم أن المسافة لا تستغرق عشر دقائق بالمرسيدس تحت المطر . قال أيضا أنه فكر دون إرادته فى شكل الثعبان وكيف تم الحادث ، وأكد أنه كان مُرسلا لينفذ قضاء الله ، وإلا ما عمى الحاج ومن معه عنه ، وما صار يزحف فى هدوء واطمئنان بعد اللدغ .

خرجنا نهرول فى الهواء الذى يصفع وجوهنا من كل ناحية ، ونقفز تحت المطر وفوق المياه وفى الظلام .

***

— أعذرنى ما منعنى غير المطر .

قلت لحسنين الذى زرته فى شهر مارس بعد انقطاع المطر بأكثر من شهر .

— وأنا أيضا . لم يكن مطرا عاديا . كان غضبا .

قال وهو يفرك كفيه فى سرور . هو الذى فتح لى الباب فرأيته فى الروب الصوف وفوق رأسه الطاقية الصوف ووجهه أحمر شديد الإشراق كما لو كان قادما من أمام فرن . ما كدنا نجلس حتى نادى « ابتهال » زوجته فدخلت يسبقها عطرها .

— هذا هو شجرة الذى حدثتك عنه — وخاطبنى — ليس لى كلام إلا عنك وماجد وعبد السلام . ألا توجد أخبار جديدة عن عبد السلام ؟ .

كنت وقفت أصافحها وهي تبتسم بمودة . إرتبكتُ ولم أعرف هل أحييها أم أرد عليه فجلستُ .

— أعذرنى مرة أخرى ياحسنين .

كنت حقيقة أشعر بالتقصير . وكان هو لا يزال يدعك كفيه فى

بعضهما . نادى زوجته من جديد فأقبلت تحمل طبقا كبيرا من الصينى المنقوش بزهور رمادية هادئة وفوقه البرتقال مقشرا . وضعته أمامنا على المنضدة الرخامية المنخفضة . خرجت ليناديها بعد قليل فعادت حاملة طبقا يشبه السابق فوقه اليوسفى الكبير المتفتح . انصرفت ليناديها بعد لحظات فتدخل حاملة طبقا من نفس الصنف فوقه الموز . فى دهشة أقول « لا داعى » . تبتسم بوداعة وهو يصر ويقول « الشاى يا ابتهال ثم القهوة » . يقرّب من الفاكهة ويقدمها لى بيده ويحلف حتى آكل . أتردد كثيرا وبحق ولا يتركنى حتى آكل وآكل . أشعر للفاكهة طعما مختلفا عما ذقته فى حياتى وأتساءل هل تغيرت الفاكهة فى مصر وصارت أجمل فجأة أم هو الجو الأسرى المشعشع بالألفة حولى .

دارت عيناى على الجدران المطلية بالزيت الجديد ، والمقاعد البسيطة الشكل والثمن فبدت لى الحجرة جميلة متجانسة . تابعت حسنين وهو لا يكف عن نداء زوجته فى سرور طفل . يستقبلها بعينيه مفتوحتين بالألق ، ويتابعها بهما فى سعادة غير المصدق . فكرت أنه هو الذى خلقها لنفسه بنفسه وإلا لماذا هذا الزهو الغامر والفرح ؟ .

— هيه . ما رأيك فى الزواج ؟ .

كنت أتوقع أن يعيد سؤاله الذى لم أجب عليه عن عبد السلام ، وابتسمت زوجته وهي تضع الشاى أمامنا . فاجأنى بطلبه منها أن تعد لنا العشاء . رفضتُ هذه المرة بشدة فانزعجت زوجته وأحمر وجهها وقالت بصوت خافت كالنسمة « لماذا ؟ » فلم أعرف بم أجيب واستسلمت . فوجئت بحسنين يهمس فى أذنى بصوت مسموع .

— سأزوجك . داوم على زيارتنا .

رأيت وجه زوجته يشتعل من جديد وأحسست بأذنى تشتعلان .

○○○

لماذا قال داوم على زيارتنا ؟ . نجا أبى وجَدُّه والعائلة كلها من المطر

الكاسح لأنهم تركوا أمر الله ينفذ . هل من اللائق أن يصبح ذهابي إليه ترغيبتي في الزواج ؟ . يحلها من لا ينام ياحسنين وأمر الله لابد ينفذ ..

مضى شهر وشهر وتذكرت الدكرورى فى عيد العمال فكدت أبكى . لا أعرف حتى الآن ما الذى أراده الدكرورى منى أو أراده لى . كيف سكت عن جرائمى التى كانت ترفع نجمه الى السماء لو أراد ؟ .

كالعادة لم يشارك فى عيد العمال غير أعضاء مجلس النقابة . بدت الاسكندرية وهى تدخل فى الصيف جهمة هذا العام فارتدت لباسا أصفر من الغبار . جهزت أدوات الصيد ، واشتريت ماكينة جديدة ، وفكرت أن أغرق حسنين وزوجته الرقيقة باسماك الدنيس والبورى . لم أكن أعرف أنى لن أصطاد . دخل الأسطى زينهم حجرتى . كدت أنساه ولعل ذلك ما جعلنى ألقاه باسما إلى الغاية وأحتفى به مرحباً وقال فجأة :

ــ تعرف طبعا أن الدكرورى مات ؟

جعلنى ابتسم .

ــ هناك انتخابات عامة للنقابات فى أغسطس ولقد رشحناك لمنصب النقيب .

تأملته ولم أستوعب كلامه فى الحال . يقول منصب النقيب ويقول أنهم رشحونى .

ــ أنا ؟ .

ــ طبعا ..

تابعت تأملى وهرشت رأسى بأظافر يدى اليسرى .

ــ أنا ؟ .

ــ طبعا .

صرت ابتسم وصار هو يبتسم .

ــ ليست فزورة ياستاذ شحرة . لقد استقر الرأى .

ــ رأى من ؟ .

ــ رأيى ورأى السائقين زملائى ورأى العمال .

تراجعت بمقعدى الى الخلف وتطلعت اليه من جديد . سمين جدا يكاد يشغل فضاء الحجرة كله ويبدو الكلام خارجا من فمه الصغير كأنه خارج من ثقب فى برميل ويتحدث فى لهجة واثقة تدعو الى الضحك حقا .

شملتنى استرابة عميقة . تذكرت يوم عودة السادات من كامب ديفيد وكيف تآمر على مع زملائه ، وكيف فاز وحده أو معهم بثمن الوجبات الجاهزة .

قلت :

ــ ماذا تريدون بالضبط ؟

ــ لا شيء . أنت أفضل من يتولى هذا المنصب . الدكرورى لم يكن يخدم العمال . كان انتهازيا يحقق مصالحه الشخصية .

سكت قليلا . الرجل يتحدث فى السياسة . هذا الوغد يتحدث فى السياسة . الدكرورى الذى أنقطع عن التدخين ليتزوج كان انتهازيا ! . الدكرورى شاحب الوجه من سوء التغذية لم يكن يخدم العمال ! . الدكرورى الذى أتاح لى ، ولهذا الضبع الضخم ، أن نسرق أموال الشركة كان انتهازيا لا يخدم العمال ! ...

ــ ياأسطى زينهم انتهت الاستقبالات . البلد هائجة كما تعلم . أم أنك لا تعرف ؟ . معارضة وفتنة طائفية وكل يوم تصفية لحزب سرى ، مسلمين وشيوعيين وعملاء لليبيا وسوريا واليمن وكل الدنيا ، والرئيس نازل شتيمة فى الشعب صباحا ومساء ، وتطلب منى أن أرشح نفسى .

تأملته كثيرا وهو يمط شفته السفلى . هز كتفه الأيسر واقترب منى بوجهه فحجزه المكتب وكرشه معا إلا أنه قال بهمس :

ــ واحنا مالنا !

***

ظلت أدوات الصيد مركونة فى المطبخ . علاها التراب وكسا الماكينة

الجديدة أيضا . أتعبني الأسطى زينهم الذى وجدته أكثر عافية منى . كان يسبقنى فى الورش مندسا بين العمال داعيا لهم أن يلتفوا حولى . يصافحوننى ضاحكين لكن لا يتحدثون معى فى شىء . توقعت اسئلة كثيرة ومن كل نوع عن مطالب عديدة ، لكنهم يكتفون بمصافحتى والابتسام ، والدعاء لى بالتوفيق ، ويتصرفون الى آلاتهم .

أحسست بغباء جولاتى ، وأن نوعا من البلاهة يسيطر علينا جميعا ، إلا أن الاسطى زينهم قال لى أن هذه هى العادة فى أى انتخابات . المهم أن يراك العمال بينهم أكثر وقت ممكن . لم يكن ذلك سهلا . لكن زينهم ولا أدرى كيف ، استطاع إقناع المهندسين ورؤساء الأقسام ألا يعترضوا دخولى الورش والمعامل . كون لى فريقا من السائقين يتولون طبع بطاقات الدعاية واللافتات والملصقات التى حملت شعارات قرأت مثلها كثيرا على لافتات الإنتخابات فى الشوارع . « شجرة خير من يمثلكم » ، « شجرة نصير العمال » .

ما الذى جعلنى اندفع فى هذه التجربة ؟ . لا أدرى . أمشى ويمشى الأسطى زينهم أمامى . لكنى رأيت لأول مرة الشركة التى أعمل بها منذ ثلاثة عشر عاما . مساحات واسعة من الفضاء الأبيض بين الورش لا تشوهها ألواح الصاج المخزونة ولا الصناديق الخشبية الضخمة ولا الأوناش المعلقة . فى الورش صرت أشم رائحة الزيت والشحم على الأرض ، والملابس ، ورائحة اللحام ومصهورات الحديد . رأيت عمالا يتحركون فى عافية ومرح ، ينحنون فوق ماكينات الخراطة والمقاشط العملاقة وماكينات تشكيل الألواح وقصها فى مودة وخشوع . وجوه الكتبيين أليفة لى من ترددهم على يطلبون بيانا أو شهادة ما ، أو ايداعها فى الملف . اكتشفت قيمة عملى . لم يكن مع الورق . وليس كل عامل مجموعة أوراق أمامى . بين دفتى الملف حياة نابضة . علاوات وترقيات وخصومات ومرض وانقطاع وزواج وانجاب . أنا تقريبا اكثر موظفى الادارة شهرة عند العمال .

وقفت كثيرا مع العاملين عند السفينة التى يتم بناؤها وهواء البحر يتابع

غاسلا حلوقنا وأنوفنا موسعا فى صدورنا والبحر يبدو لى مختلفا عنه أمام شرفة شقتى . هنا بحر زاخر بالسفن البيضاء المحتشدة فى الميناء ، تلمع مداخنها السوداء العريضة والقصيرة ، وتبرق أجسام بحارتها العارية ، والشمس تبدو تبارك هذا الكون الزاهى بالحركة وأمامى تمتد مجاسع الماء كأنها تتنهد وصوتها تهنئة حميمة . لكنى كنت أعود متعبا إلى شقتى فأنام مبكرا . فى كل يوم أهبط الى الشركة أقرر الإستمرار فى التجربة . أعود الى شقتى تشتعل النار فى قدمى أقرر الانسحاب . الأسطى زينهم والسائقون يأتون إلىّ أيضا فى الشقة يتحدثون عن ضرورة شراء أرض فضاء نبنى فوقها مساكن للعمال ، وضرورة بناء مسجد وسط الأرض . أبتسم وأقول إن شاء الله فيتحدثون عن ضرورة زواجى لتعمر شقتى الخالية . بل فاجأنى الأسطى زينهم بقوله أنى إذا رغبت حقا فى الزواج فما على إلا أن أشير اليه فيقوم هو باللازم على الفور . حقا قال ذلك . حاولت أن اتغافل عما قال . كدت أنفجر فيه ألا ينسى أننى صاحب الفضل عليه ، وأنه فى النهاية طالب رزق أما أنا فطز فى النقابة وكل شىء . لكنى حدثته عن قلة خبرتى بمشاكل العمال . « هل سألك أحد شيئا » ؟ سألنى . أجبت « لا » . قال « لا مشاكل » . وحثنى على المرور على المقاهى القريبة من الشركة بأحياء القبارى والمفروزة والورديان حيث يعيش اكثر العمال ويسهرون . قال أن هذه الطريقة لم يفعلها أحد من قبل إلا مرشحى مجلس الشعب والمجالس المحلية ، وأنى بهذه الطريقة أضمن الفوز تماما خاصة وأن هناك لغطا يثيره أعضاء النقابة القدامى حول ترشيحى . يروّجون لدعايات تقول أننى فى النهاية موظف بعيد عن العمال وإن كنت لا أحمل مؤهلا عاليا .

بدا لى الأمر جادا ، إلا أنى أحسست به يكذب . لم يبدو أن أحدا مهتم بهذه الانتخابات ، لا من القدامى ولا من العمال ولا من المهندسين والرؤساء . الكل يصافحنى بابتسامة عريضة ويتمنى لى النجاح ولا يتحدث معى فى أى شىء . لا يسألنى لماذا رشحت نفسى ؟ . كل ما

حدث وأحس به أنى انفقت أكثر من مائة وخمسين جنيها على الدعاية حتى الآن . لكنى فعلت ما يريد . لا يمكن أن أتراجع . أريد أن أكون نقيبا للعمال . أول قرارى سيكون عدم الإشتراك فى المسيرات واستقبال الرئيس والرؤساء . سأقطع الطريق على تزيهم .

صرت أعود من المقاهى مهدوداً بعد منتصف الليل . لم أجد إلا عمالا يلعبون الطاولة والدومينو ويرتفع صياحهم بالنصر و « المعيرة » للمهزوم . يطلبون لى شايا أو قهوة ويتراجعون أمام إصرارى على دفع الحساب كله . مرة تحدث أحدهم فقال :

ــ أهم شيء ياأستاذ شجرة أن تفعل شيئا لامبابى .

ــ من هو امبابى ؟ .

ــ الا تعرفه ؟

ــ لا .

نظر الى زملائه غير مصدق وقال :

ــ أقدم واحد فى الشركة . إنه حكاية وحده . مسكين .

سكتُّ واستمر هو فى الكلام .

ــ منذ خمس عشرة سنة ، والشركة مشروع يتم إعداده ، كانت الأرض بحرا وكانوا يردمون البحر . سيارات النقل تأتى محملة بالتراب والحجارة وتلقى بها فى الماء . كان امبابى بين العمال الذين يقومون بتسوية الأرض بعد أن يرتفع التراب فوق الماء . كان قادما لتوه من الصعيد ومعه أخوه الأصغر . سقط أخوه فى الماء ولم يستطيعوا انتشاله . فشل الغواصون فى العثور عليه ، ولم يطرد الماء الجثة الى أى مكان على شواطيء الاسكندرية . من يومها وامبابى لا يفارق الشاطيء . يأتى قبل العمال جميعا ويجلس أمام الماء يزعق يامبابى يامبابى . أخوه كان اسمه امبابى أيضا . ويلطم مع كل كلمة خدا من خديه بيد من يديه وعيناه لا تفارق الماء ولا الخيط الذى ينصبه لصيد السمك . يدلى إلى الماء أكثر من خيط يعقد نهاية كل منها بقطعة حجر كبيرة حتى لا تأخذ السمكة الخيط وتهرب . إذا تحرك

الخيط واصطاد سمكة انتشلها بسرعة واخرجها من الصنارة ودق رأسها وجسمها بحجر وطوح بها بأقصى قوته الى أبعد نقطة يصل اليها فى البحر . فى الساعة الثالثة تماما يكون قد جمع خيوطه ويترك الشركة مع العمال أحمر وأزرق الوجه مجرّح الكفين . لا يصدق امبابى حتى الآن أن أخاه مات ، ولا يصدق أن السمك الذى أكل أخاه لن يعيده . لكن كيف لا تعرف امبابى ؟ .

كانت الحكاية مفاجأةً لى بحق ، وللحظات فكرت أنه يكذب على . لكن عاملا آخر قال :

ــ ماذا تريده أن يفعل له ؟ . الشركة تصرف له راتبه وتعرف أنه لا يعمل منذ خمس عشرة سنة . تريده أن ينقله الى مستشفى المجانين ؟ لقد صار عجوزا سقطت أسنانه وزاغت عيناه وآجلا أو عاجلا سوف يموت .

فى تلك الليلة سمعت حركة فى الشقة المقابلة لشقتى . فى الصباح ، وكان يوم الجمعة ، صحوت مبكرا على غير عادتى منذ رشحت نفسى . وقفت فى الشرفة فى نيتى أتطلع الى البحر . رأيت أربع نساء صغيرات جميلات ينشرن الغسيل فى وقت واحد أمام الشرفات ويتبادلن التحية والابتسام . إذن ازداد السكان وتعارفوا . ما أبشع ما أفعل . أنا الذى أعود بالليل جاراً ساقٍ كأنهما جوالا ملح أصحو مبكرا ، والرجال الذين يملكون هؤلاء النسوة الجميلات لا يزالون نائمين . التعب نوعان حقا ، نوع تنام فتتخلص منه كأى آله تتوقف قليلا فترتاح بعيو لى ، ونوع تنام فيأخذك للأحلام الجميلة ، وهو لأولئك الأزواج ..

***

اقترب موعد الانتخابات . لم يعد يهمنى إلا ان تنتهى فاستريح . أنفقت حتى الآن مائتى جنيه فى الدعاية . لم يعد يمكننى التراجع . تعمدت فى جولاتى ألا أقترب أبدا من البحر .. لا أريد أن أرى امبابى

هذا . الحقيقة أنى كثيرا ما شعرت بالحماسة رغم الجو الكسول حولى . اجتاحتنى الرغبة فى الفوز لفكرة لا أستطيع أن أصرح بها لأحد الآن . ولم أكن أدرى أنى فى دورتى على المقاهى أمرّ كثيرا ببيت حسنين فى القبارى : فى مقهى « اللنش » رأيته مقبلا نحوى بابتسامته البهيجة ووجهه المشرق . كنت أجلس بين عدد من العمال يدخنون « المعسّل » ويتكلمون مع الدخان الكثيف المندفع من أفواههم التى يفتحونها بشكل غريب .

— أنت هنا قريب من بيتى ولا تزورنى ؟

امسكت بيديه أشده للجلوس . تنبه متأخرا إلى العمال الذين حولى فنظر اليهم فى ارتباك .

— حسنين صديقى .

قدمته لهم فقال أكثر من واحد :

— نعرفه . هو فقط الذى لا يعرفنا .

وجعلوا يخبرونه بمواقع بيوتهم ووجهه يزداد احمرارا ودهشة . تضايقت فعلا من هذا الحديث الخائب .

— جلسة انتخابية .

قلت مبتسما فابتسم . أعرف أنه لا يصدق ، بل لا يفهم ما أقصد ، لكن العمال حدثوه عن شرفهم بتمثيلى لهم ، وعن المؤمرات التى تحاك ضدى ، وعن تصديهم لهذه المؤمرات والدفاع عن سمعتى . الأستاذ شجرة ليس بعيدا عن العمال . بل هو أعرف الناس بهم . الملفات عنده وبالملفات كل شيء عن أى شخص ... كانت هذه أول مرة أسمع عن المؤمرات . وأخذنى حسنين خارجا :

— لماذا لم تأت ؟ . لقد رشحت لك إبتهال فاتين وكنا رتبنا كل شيء :

— لماذا لم تخبرنى ؟ .

قلت ذلك بعد لحظات . بعد أن أدركت أنه يتحدث عن الزواج .

— حضرت أكثر من مرة فلم أجدك . لا فى المقهى ولا فى البيت . لم أكن أعرف ما تفعله . أخبرت ماجد .

— لم يخبرنى بشيء . — وسكت قليلا — وما العمل الآن ؟

— لا شيء . تزوجت الفتاتان . موسم صيف والعائدون من دول البترول لا يبقون على شيء .

جعلنى أضحك بعد أن كنت أتكلم كالمأخوذ . فكرت بجدية ما يفعل من أجلى حقا . لكنى لم اتضايق من نفسى . قال وهو يودعنى :

— بالمناسبة الحاج لقمان كان يجلس فى هذه المقهى فى باكر أيامه . سوف أمر عليك يوما .

***

سمعت طرقا شديدا على الباب . من الذى يفعل هذا فى السادسة صباحا يوم الجمعة . خفت للحظة . فكرت أنه لا أم ولا أب ولا أخ لى ولا قريب أعرفه . تحركت فى ضيق من هذا الأحمق الذى لا يدق الجرس وفتحت الباب .

— الزبالة .

كان يقف أمامى فى جلباب سابغ بالقذارة ، يعلوه جاكت محترق حائل ، ويضع جواره فوق الأرض « مقطفا » كبيرا . تحيرت للحظة :

— لا توجد زبالة .

وأغلقت الباب . وقفت وسط الصالة . يأتى عمارتنا الآن زبال ! امتلأت عمارتنا إذن بالسكان ورتبوا حياتهم ولا أدرى . حتى أمس كنت ألقى بالزبالة إلى البحر ... وكنت فى حاجة إلى نوم كالموت . أجريت الإنتخابات أمس وفزت بأعلى الأصوات . دخلت سريرى فنمت من جديد ..

« يجلس جوار المبولة العامة بالدخيلة شحاذان . أحدهما ناظر مدرسة ابتدائية معروف كان يفتح المدرسة بالليل ويجبر المدرسين على الحضور والتدريس للمقاعد الخالية ، والثاني جزار بكى الخروف بين يديه وهو يذبحه وقال له إنما هو كبش أرسله الله من السماء : منذ أيام صار الرجلان اربعة » .

« ١٠ »

ـــ نقيب العمال ونائم ؟ .

ما كدت أفتح الباب حتى هتف حسنين بذلك . مددت يدى أصافحه . لم أحتضنه . لم يحتضننى يوم ذهبت أهنئه بالزواج .

ـــ انفلونزا صيفية لعينة .

أمسك بذراعي فاستندت على يده حتى دخلت حجرة النوم وتمددت فوق السرير . بصعوبة سحبت « الكوفرتة » فوق . قلت :

ـــ كيف عرفت ؟ .

— صدفة . أحد الذين كانوا معك بمقهى اللنش اعترض طريقى وصافحنى وقبّلنى وأبلغنى ! . كان سعيدا جدا . ألا تأخذ دواء ؟ .

— لا أحب الدواء . أكتفى بالليمون .

سكتنا قليلا . رأيته يتفحص الأثاث القديم بعينيه . لماذا حقا لا أجدده ؟ لدى مدخرات لا أفيد منها . ووقف حسنين يتأملنى وتتسع ابتسامته بطريقة مثيرة حتى أنى ابتسمت . قلت :

— إياك أن تطلب الذهاب إلى المقهى .

— لا . ولكن الشرفة . هذه الحجرة كئيبة جدا ولابد أنها موبوءة بالميكروبات . صدرى حساس كما تعرف . ثم أنك لن تشفى إلا إذا تعرضت للهواء والشمس .

وامسك بالكوفرتة التى فوق وجذبها ليكومها بين يديه ثم يلقى بها تحت قدمى ، وحاول أن يشدنى من ذراعى بقوة .

— طيب . طيب . سأنهض .

قلت وأنا أضحك بصعوبة فيهتز جسمى كله . استندت على يدى ونهضت جالسا على جانب السرير . حاول جذبى من جديد فوقفت مضطرا . ما كدت استند على ذراعه حتى جذبنا .

— إمشى وحدك . سأحمل أنا المقعدين . أنت لست مريضا كما تتصور .

ابتسمت ومشيت وحدى اتعجب من حسنين وما يفعله . بالشرفة جلسنا .

— غلطة عمرى ياحسنين .

قلت وما كدنا نجلس ..

— غلطة عمرى . لا أجد وقتا للعمل ولا للنوم . أنهم يأتون الى هنا بمشاكلهم .

— اسمع . ما أتيت هنا لأسمع شكواك . اتيت لأخبرك أن أمامنا اكثر

من عروس لك . إذا كنت جادا تتحرك ، وإذا لم تكن تذهب الى المقهى وتنسى الموضوع .

تأملته وهو يتكلم . كنت فرحان به . يبدو فى اهتمامه بى اكثر منى بنفسى .

— بعد أن تزوجتُ تغيرت أشياء كثيرة فى عينىّ أهمها أنى لم أعد أفكر وحدى . لم يعد عقلى يسأل ويجيب حتى يصيبه الإرهاق .. الآن أفكر بصوت عال . أتحدث مع ابتهال فارتاح . التفكير الآن مناغاة حلوة . تصور ، لقد لاحظت أن النساء عموما يبتسمن دائما أثناء الكلام . هذه البسمة لم أقف عندها من قبل . ابتسامة زوجتك تبث فيك احساسا بالراحة والجمال . بالليل حين تضمنا حجرة واحدة أرى الضوء مبهرا جدا ، ويصل إلى البياض فى أعمق درجاته ، أبيض من اللبن ، وأشعر بسكينة الذى امتلك كل شىء فلا أكاد أدرك أن حولى غرفا أخرى ، أو بشرا آخرين ، أو عالماً تملؤه المشاكل أو الأفراح ...

تصبح الغرفة جزيرة فى بحر ساطع الضوء . أنا لا أغريك بالزواج ، لكن أنت فيما يبدو جاهل بالحياة . لقد وصلنا فى العمر إلى النقطة التى يأخذ فيها فى الانحناء . أصبحنا نلهث لنلحق بقطار الناس العادى . قطار جيل ، وهو الحياة الحقيقية مهما تأخر ، ولو فاتنا تصبح الكارثة نفسها . هل تعرف معنى أن تصل إلى سن الأربعين مثلا دون أن يكون لك ولد ؟ . أبسط المعانى أنك لن تراه رجلا . لا أعتقد أن أحدا من جيلنا سيتجاوز فى عمره الخمسين بأى حال . أجل . إن عدد الوزارات التى تقلبت علينا وحده يمحق عمر الفيل — جعلنى أضحك متألما وأنا أتابعه بانبهار وتساؤل عما جرى فى عقله ليتحدث بهذه الطريقة كأننى معارض حقا للزواج ، لكنه استمر — لا تضحك . أنا أتكلم جادا . من أين يأتون بهؤلاء الوزراء الذين يزيد عددهم الآن عن عدد الشعب ؟ . لكن ما علينا . ذلك كله سيفيدنا يوم الحساب . سيقف الله أمام البشر ويسأل كل واحد

عن جنسيته . المصري بالذات سوف يمر بلا حساب إلى الجنة لما تحمله من آلام في حياته ، وما لا قاه من تعاقب الوزارات . لا تضحك .. ورغم ذلك فنحن الذين نعقد الأمور لأن ظروفنا مهما صعبت أسهل من غيرنا . على الأقل لدى كل منا مكان يؤهله للاستقرار . ماجد يكسب من الصيدلية ويستطيع الحصول على شقة لو أراد ، وعبد السلام سيعود وأول ما يفعله هو الزواج وسوف اذكرك . للدنيا ميزة لا يدركها إلا من فقدها وهم بالآلاف ، وحتى هؤلاء يتزوجون ، يشكون لك اليوم ، ويدعونك الى زواجهم غدا . يعيشون بأى طريقة ولا يتوقفون أمام أى نوع من اليأس . هذا شعب « خلفة عفاريت » يهوى النفاذ من سم الإبرة . ثم لماذا لا تتزوج ؟ . هه . إياك أن تصور لك النقابة أنك مناضل كبير . ممكن جدا . ألم يقبضوا عليك مرة ؟ — صرت أضحك بلا صوت ويهتز جسمي كله وأشير له بيدى أن يسكت — لابد أن تعرف أنها ليست حرفتك . المقدس يحيى يصلح لها أكثر منك ، وعبده الفاكهاني أصلح الجميع . وحتى لو أحببت أن تكون مناضلا لابد أن تتزوج . نابليون تزوج ، ولينين ، وسعد زغلول ، وسيدنا محمد ضرب الرقم القياسي . ولماذا نذهب بعيدا . جمال عبد الناصر كان متزوجا ولديه أولاد . هه . نقيب العمال !! . الحاج لقمان أصبح عضوا بمجلس الشعب . يا أخي يلعن أبوك ابن كلب .

تملكني الضحك والسعال : بدا أنه القى عينا فتراجع بظهره وتأملني باسما مبتهجا . تذكرت الخمسمائة جنيه لكن سرعان ما نظرت أمامي . البحر يمتد صامتا بطيء الأمواج كما لو كان نائما يحلم ، وفي الفضاء نسمة منعشة حقا . إنه سبتمبر حين يتشبث بآخر همسات الصيف ، ويفتح بابه للخريف مواربا . هذه الجلسة ستشفيني من الإنفلونزا الملعينة . أشعر أني لا أجلس وحدى مع حسنين ، بل معنا ماجد وعبد السلام ، فهذه الألفة التي أحسها نحوه بنت لقاءاتنا الجماعية . كم نحب بعضنا البعض ولا ندري . قلت :

— تصور أني لم أرى ماجد منذ حوالي عام ؟ بيني وبينه خمس دقائق على قدمي ولا أعرف لماذا لا أذهب اليه أو يأتي إليّ

قال وهو يقف :

— قابلته بالصيدلية قبل أن أحضر إليك . عاتبته لأنه لم يخبرك بأمر الفتاتين فقال أنه أتى إليك مرتين ولم يجدك . توقع أن تمر عليه فلم يحدث ، وكل يوم يفكر أن يمر عليك فيتوقع أن تمر عليه حتى نسى الموضوع .

— حسنين أرجوك لا أستطيع أن أضحك

— لا تضحك .

— طيب . طيب هل عرفتني كذابا ؟

— أكبر كذاب في مصر والعالم العربي أيضا .

— طيب . طيب . الآن أريدك أن تصدقني . أنا لا أريد الا شيئين اثنين . أولهما أن أتزوج ، والثاني أن أترك النقابة .

***

زرت حسنين فخيرني بين اثنتين . أرملة شابة جميلة محجّبة لديها شقة وطفل وحساب كبير في البنك تركه لها زوجها الذي غرق في نهر دجلة ، وفتاة تعمل على الآلة الكاتبة وليست في جمال الأولى . الأرملة في الرابعة والعشرين ، والفتاة في السادسة والعشرين . قال ببراعة شديدة أنه سد حكيت حكاية الشاب الذي ألقى بالأثاث الى البحر وهو يفكر أن يزوجني . وأنه كان جادا حين قال ذلك أول مرة . وهمس لي بأنه لو لم تكن ابتهال ابنة خالته لقدمني على نفسه لأنه في لحظة تخيلني طفلا تائها في الصحراء . لم يكن حسنين جادا فيما يقول بالطبع ، لكني أحسست بالخزي من نفسي . مرة يتصور حسنين أنني مضرب عن الزواج ، ومرة يتصورني عاجزا عنه ، ولم يبق إلا أن يسحبني من يدي وينادي « امرأة للمسكين » . هذا الشعور الأبوي عند حسنين يصيبني بنفور .. لكني

قلت « أرى الفتاة » ضحك وعمته زوجته وهو يقول « الأرملة زوجها غرق في نهر دجلة ما ذنبنا ؟ . وهل ضاقت عليه حتى يستحم في دجلة . ماله الفرات ؟ » . وعمتها تضحك من الغرفة الداخلية واختلط ضحكها بضحكنا الذي دوى . في الحقيقة لم يخطر بذهني أن الفتاة أفضل من الأرملة . وربما لو فكرت لوجدت الأرملة أفضل فهي أجمل وأغنى ولديها طفل جاهز لن تشقى في تربيته . من يدري ربما أكون مثل أبي لا أنجب إلا بعد عشرين سنة .. واتفقنا على لقاء بعد أسبوع .

***

اقترب اليوم الذي أقدم فيه استقالتي من النقابة . فكرت في ذلك منذ يوم فوزي ولم يبق إلا أن أحقق مالم استطع الإفصاح عنه . لا أكذبكم . ففي لحظات كنت اتردد في الإستقالة . لكنني واجهت أمورا لا أطيقها . غياب ومرضى وإعانات اجتماعية وإنذارات بالفصل وطلبات إجازة بدون مرتب متعثرة وتنظيم رحلات إلى بور سعيد واقتراحات بفصول لمحو الأمية للعاملين وفصول تقوية لأبناء العاملين . أين كان ذلك كله مخبأ وكيف لم يظهر خلال الحملة الإنتخابية ؟ . صرت أمضي اليوم كله لاهثا مهرولا في أرجاء الشركة وبين الورش والإدارة ، وأدركت لماذا كان الدكروري شاحبا هزيلا ، وفكرت أنه كان لابد ميت ، إن لم يكن بلدغة الثعبان ، فبهبوط في القلب . وصار مكتبي يمتلىء في الأوقات القليلة التي أمضيها فيه بالعمال الذين يتحدثون كثيرا ويضحكون وهم يعرضون مشاكلهم بجدية ، وغفلت عن العناية بالملفات فكستها العناكب وتدلت من الأسقف شباكها حتى صارت الغرفة كبيت الأشباح

وامتلأت شقتي بمن تخيل أن لقاءاً على انفراد يحل مشكلته في تخلفه في الدرجة أو الترقية ، وجعل الأسطى زينهم يحضر كل من هب ودب الى حتى تخيلته يجمع الناس من الطرقات كما يجمع الأوراق المهملة ، فتشتت

وقتي وجهدي أنا الذي تعودت على أوراق منظمة خرساء في ملفات بكماء أفتحها وأغلقها وأرتبها وأضيف إليها وأنزع منها وتستجيب بلا أدنى مقاومة . وجاءني الأسطى زينهم آخر النهار وأنا أوشك أن أغادر مكتبي متعبا أفكر لو أن بالغرفة سريراً فلا أبرحها . وكان يلهث وينز عرقا وهتف :

— مصيبة . مصيبة ياشجرة .

دب النمل في جسمي لكنني تماسكت . ها هو يناديني بإسمي دون « استاذ » .

— خير ياأسطى زينهم .

— مات امبابي .

— إمبابي من ؟ .

— إمبابي . ألا تعرفه ؟ . اجلس أولا .

كنت واقفا ورأيته يشد المقعد البعيد الى جانب المكتب . وقال :

— إمبابي المجنون .

كنت أنا تذكرت امبابي الذي حدثني أحد العمال عنه أثناء الجولات الانتخابية .

— عشرات من العمال يتجمعون حوله الآن . وجدوه ممددا على الشاطىء فوق ظهره حوله اسماك مسحوقة ومن فمه تنبعث رائحة الزفارة وتجمد فوقه دم . يقولون أنه في الفترة الأخيرة كان يأكل السمك نيئا ويخمنون أنه أكل منه كثيرا اليوم حتى أتخم . المشكلة أنه لا أحد يعرف أهله أو عنوانه .

أشرت الى الملفات وطلبت منه أن يبحث في حرف الألف والميم ، وتركت ذراعي يتهدلان جانبي وأسندت ظهري الى المقعد في استرخاء . رأيت الرجل الضخم يتحرك أمامي مثل كرة مطاطية وسرعان ما جذب ملفا وضعه أمامي وفتحه .

ـــ ليس به إلا ورقة واحدة .

تأملت الورقة فلم أجد إلا اسمه وسنه وعمله وراتبه عند التعيين . لا عنوان ولا أى شىء يدل على حركة فى حياته . لا زواج ولا ترقية ولا مرض ولا نقل ولا جزاء . ورقة واحدة صفراء خرّمها السوس .

ـــ كنت أتوقع ذلك . تتولى النقابة دفنه .

قال الأسطى زينهم وأنا أتأمله . ماذا لو وقفت وصفعته على وجهه هذا الذى يعرف كل شىء . هذا الجاسوس ؟ ! .

لم يكن دفن الرجل صعبا . فوضت الأسطى زينهم أن يفعل ما يلزم ، وذهبت الى شقتى ونظرت لأول مرة فى المرآة . هذا الشحوب الذى يذكرنى بالدكرورى كيف أغفل عنه ؟ . لا وقت لدى لطهو الطعام فأعيش على المعلّبات التى يكتشفون كل يوم أنها مغشوشة أو غير مخصصة للانسان . لم يكن أعضاء النقابة يساهمون فى أى عمل أو نشاط إلا احالة المشكلات والطلبات الىّ . وكان علىّ أن انتظر تنفيذ وعد رئيس مجلس الإدارة باعتبار « الملفات » قسما كاملا سيزوده باثنين من الموظفين أصبح أنا رئيسهما ورئيس القسم . أمس أعلنت الشركة عن حاجتها لذلك بالصحف وما هى إلا أيام ويتحقق الوعد . بعدها سأستقيل من النقابة ولن يستطيع رئيس مجلس الإدارة العودة فى قراره . فى الحقيقة يستطيع لو أراد لكن لا اعتقد أنه سيفعلها . لا يزال الله فى جانبى . ولو حدث سأقاضى الشركة لأنى أكون اكتسبت حقا لا يمكن الرجعة فيه . أجل . سأدافع عن حقوق لأنه لا قيمة للإنسان إن لم يدافع عن حقوقه ! . والمهم الآن أن مسألة زواجى تطورت بسرعة . زرت حسنين فى الموعد فوجدت « نوال » فى ضيافة زوجته . ما كدت أفكر كيف سأراها حتى نادى زوجته وتساءل :

ـــ لماذا لا تجلسان معنا ؟ .

ابتسمت وانصرفت لتعود بعد دقيقة واحدة تحمل طبقا من الصينى رأيته من قبل فوقه الموز ونوال خلفها . صافحتنى .

هل يصدق أحد أن هذه أول مرة أصافح فتاة ؟ عمرى الآن خمسة وثلاثين سنة . صافحتنى زميلات كثيرات وجارات لأمى فى الجبل ، وكلهن لم يكن نساء ولا كنت رجلا . يد « نوال » دافئة ترتعش ويدى باردة كالثلج . ورفعت وجهى لأرى وجه التى صارت تنظر الى الأرض . صغيرة كقطة جلست ضامة ركبتيها وساقيها . خلاصة نوال كما قال ماجد يوما عن فتاة القاهرة ، ولا تكف أهدابها الطويلة عن الإرتعاش . لابد تشعر بنظراتى . لابد تعرف غرضى . ومن يدرى ربما تنظر الىّ بطريقة ما هى الأخرى . هل يكون عام ١٩٨٠ هذا حاسما فى حياتى ..

***

فى العمل . فى البيت . فى الطريق . فى زياراتى لحسنين . فى جلساتى منفردا مع نوال فى إحدى حجرات بيتها تلمع أمامى فجأة فكرة وتختفى . شىء أريد أن أتذكره ولا استطيع .

ـــ جئنا نحتفل بك .

قال حسنين وهو يفتح ذراعيه على اتساعهما ويأخذنى فى أحضانه . كنا نسينا الأحضان ، وكنت سمعت جرس الباب يدق متواليا بطريقة جعلتنى اتصور أنه الأسطى زينهم جاء ومعه مشكلة ، وصممت لو رأيته أضربه ولو استطعت ألقى به ومن معه من الشرفة . لكنى وجدت حسنين وماجد خلف الباب . احتضنت ماجد أكثر من مرة وأسرعت احضر مقعدين من المقاعد القديمة التى ستتغير خلال أيام إلا أن ماجد قال :

ـــ نذهب الى المقهى . المقهى أفضل .

أدركت أنى لاحظت شعرات بيضاء قليلة تناثرت وسط شعره الأسود اللامع . وقفت وسط الصالة ولم أحضر المقعدين . شلنى ماجد وأنا فى منتصف المسافة . ما سر هذه المقهى الصغيرة الخالية القائمة على طريق لا

مبال ترع فوقه سيارات مجنونة ؟ لدى الكثير أود الحديث فيه مع كليهما . كيف سنشترى الثلاجة أنا ونوال . كيف سنشترى البوتاجاز كيف اشترينا الصيني وأدوات المطبخ ووقع اختيارنا على اثاث جميل متواضع سنشتريه بعد أيام نقدا كله إذ سأسحب مدخراتى التي عادت لتصل الى الألف بعد أن كانت نقصت بسبب الدعاية الانتخابية ، وكيف أن أبا نوال وأخوتها سيساهمون بألف جنيه ، وكيف لم أجد الوقت لأمر على ماجد أدعوه لحضور عقد القران الذى اقترب ، وأنى لم أكن لأنسى ذلك مهما شُغلت ، وكيف لم نُقم حفلا للخطوبة واكتفينا بلبس الدبلتين بين أسرة نوال ، ولكن فى عقد القران لابد أن تحضر العائلتان ، عائلة نوال وعائلتى ، وعائلتى هى أنت ياماجد وحسنين ولا ينقصها إلا عبد السلام .

هذا حديث لا تتسع له المقهى ياماجد فلماذا تريدنا أن ننصرف ؟ لقد وجدت نوال هادئة حنونا . أريد أن أحدثك كيف قبلتها لأول مرة وجَفَلَتْ ، ثم كيف روضتها فصارت تختبىء الآن فى صدرى كعصفور وتكاد ذراعاى تخفيانها تحتهما . ها نحن نذهب إلى المقهى وندخل فى حديثنا المكرور .

ـــ هل هذا ديسمبر حقا ؟

تساءلت فابتسم حسنين وقال .

ـــ ها . أنت ترى الأيام مختلفة .

إبتسمت وقال ماجد .

ـــ من يرى هذا الشهر لا يتصور أن هذه هى الاسكندرية . ديسمبر الماضى لم ينقطع فيه المطر وأخذ يناير معه . الاسكندرية صارت مجنونة ـــ وضحك ـــ أخيرا ستتزوج ياشجرة .

وألقى بقطعتى الزهر فتدحرجتا أمامى داخل الطاولة . لمحت الفكرة التى تراوغنى ولا أدركها ، والتى تدفعنى الى محاولة تذكر شيء نسيته . أشعلت

سيجارة وابتسمت وأنا أهز قطعتى الزهر داخل يدى .

ـــ مالك ؟

تساءل ماجد الذى فطن إلى صمتى وانشغال بالى

ـــ تمنيت لو أن أمى كانت حية .

ودحرجت الزهرين أمامى وامتدت يدى تلعب . لا أدرى ما الذى جعلنى أقول ذلك . ومد حسنين يده يربت على كتفى وصار وجهه أحمر وخاطب ماجد ربما ليغير الموضوع .

ـــ أرأيت بيت الياسمين ؟ . لقد هُدم وأصبح مكانه أرضا فضاء .

إنقبض قلبى . طال الزمن الذى لم أمر فيه من الشارع ولا أدرى .. قدماى تعودتا على الهجران . وتابعت حركة الزهرين يدفعهما ماجد .

ـــ رأيناه فى الطريق اليك . طبعا تعرفه ؟ ..

خاطبنى حسنين هذه المرة . إذن يعرف حكاية بيت الياسمين ، ويعرفها ماجد ، وتعرفها الأسكندرية كلها كما قال عبد السلام . أردت التهريج . قلت :

ـــ لو تزوج ماجد ، وعاد عبد السلام وتزوج ، لأصبح لنا جميعا أولاد يكبرون معا .

ـــ الله . الله . جميل . تصلح حسن الإمام .

هتف حسنين فضحكنا جميعا بصخب ومن القلب كما كنا نفعل من قبل إلا أن الصمت عاد يرسخ فوقنا أكثر من مرة . وفاجأنا ماجد :

ـــ لا حس ولا خبر من الأمريكية .

نظرت إلى حركة الزهر . أحسست بنظرات حسنين الىّ . كنا نسينا الأمريكية وحكايتها مع ماجد .

ـــ الدكتور موسى يرسل الىّ خطابات كثيرة يغرينى بالسفر . افكر جديا أن ألحق به فى الكويت .

لم يعد ممكناً التغافل عما يقوله ماجد الآن . أمسك الزهرين فى يده وكف عن اللعب ينتظر منا تعليقا . أردت أن أتكلم فوجدتنى سأصرخ . نظرت الى حسنين الذى ينظر الى عمر الوجه . نظرت الى ماجد فوجدته متجهما ، وأخرج لنا من جيبه رسالة قال أنها من عبد السلام ..

***

« قامت الحرب بين إيران والعراق كما تعلمون . لابد أنكم تقرأون الصحف أو تسمعون الأخبار من الراديو والتليفزيون . لا أصدق أنكم مشغولون إلى درجة عدم الكتابة إلىّ كل هذا الوقت . لا تفسير عندى إلا أنكم تفرقتم . إذا كان ذلك فتمنياتى الطيبة لكل منكم فى حياته الجديدة . ومن يدرى . ربما لا يكون لديكم الوقت فعلا . المهم . لابد أنكم تعرفون أن لى خبرة كبيرة بالحرب . يبدو أنها قدرى . خلقنى الله وقال ياعبد السلام كن محاربا . لى عدو إذن فى كل مكان ولا أدرى . ولا أدرى حتى الآن من هو عدوى بالضبط . المؤكد أنى محارب شجاع . هذا يكفى لأخوض أى حرب . أشجع محارب أنا فى الشرق الاوسط ، وإذا لم توجد الحرب فعلىّ أن أشعلها . أشجع محارب أنا فى العالم . لقد تطوعت للحرب فى صفوف العراقيين . لا تندهشوا . أعرف أن الناس تسافر لتجمع الأموال وتعود . أنا لست كسائر الناس . أنا مختلف عن سائر الناس . أنا محارب أولا وأخيرا لذلك تطاردنى الحرب أينما كنت . أجل . لايجب أبدا أن تكون سنوات عمرى الحلوة حلوة ؟ . هذا قدرى فهل أعانده وأصبح مثل سائر الناس ؟ أعرف جيدا أنى إذا أسرت سيعتبرنى الإيرانيون مرتزقا ويقتلوننى ، وإذا مت سيعتبرنى العراقيون شهيدا ويمجدوننى . أعرف هذا وذلك وأرتاح اليهما . يضايقنى أنى لا أعرف ماذا ستقولون عنى ؟ . ماذا سيقول عنى الوطن ؟ لو سألتمونى لقلت أنى لا أحب الموت ، ولا أريد المجد ، لكن معذرة ، المسألة أنكم بعيدون عنى ، كما أنى لا أفهم حتى الآن ما هو الوطن بالضبط .»

عدت الى منزلى بعد السهرة أفكر فيما يريده عبد السلام منا أو يفعله بنا . راودنى الحنين أن أصعد من الشارع القديم وأرى بيت الياسمين وقد تهدم إلا أنى لم أستطع . أرخت رسالة عبد السلام ظلها الثقيل فوق . ما هو الوطن بالضبط ؟ .

فكرت لأول مرة جادا أن أكتب اليه . فكرة لمعت فى ذهنى أردت أن أعبر عنها . لو مت يا عبد السلام لن أذوق طعم الراحة . موصول أنا بك بحبل سُرى . الناس تسافر لتجمع الأموال وتعود حقا لكن لتتزوج وتستقر . كدت تقولها يا عبد السلام . يصبح للناس وطن ولو صغير ، أجل ، الزواج هو الوطن ، والناس هي التى تصنع الأوطان . وأنا بعد أسابيع سأتزوج ويصبح لى وطنى . آه ياعبد السلام كم أنا كذاب . جعلتنى اتساءل الآن عما مضى من عمرى . كيف كنت منفيا . أين كان الوطن من قبل ؟ . ليس الزواج وطنا وحده أبدا ... لن أكتب اليك ياصديقى .

وكان الليل قد أخذ ينتصف ، ومطر خفيف يتساقط .

الختــام

وقفت فى الشرفة أملأ عينىّ بالبحر الذى استيقظ مبكراً معى اليوم ودعانى أنظر إليه . مريح ومرتاح دائما هذا البحر لا يحنق ولا يفرح لأحد . ليس فوقه الآن غير سفينة وحيدة فى مدى البصر فيبدو يحق سيد الكون . قلت يا بحر سأعلم ابنى فيك السباحة فى الشتاء الذى هو قادم فيه . من يومه الأول سأواجهه بالموج فليس أمامنا إلا زمن صدىء . وقلت ياولدى اقرأ كتابى هذا فعرف الكثير عن أبيك ولا تلمنى . لم تكن قصتى قصة زواج فقط وإلا فهى مهزلة كبرى . فتش عما خبأته فى زواياها من ألغاز . أسهل ما فعلته هو زواجى من أمك الخلاسية ... لاتنسى أن أبى ــ جدُّك ــ وضع بذرتى فأثمرت بعد عشرين سنة ، أما أنت فشىء مختلف . بذّرت خوفى فأعلنت عن الحضور من أول يوم . كأنك كنت قابعا فى ركن خفى فى هذا الكون تنتظر القفز فى الظلام . كأنك كنت جالسا عند قدمى الله ما أن وضعت بذرتك حتى انتفضت واقفا تكاد تفجر بطن أمك . لا تنس ذلك أبدا ، ولتظل تدرك أنك مختلف عنى رغم أنك من اشتعال رأسى ، ولا تكن مثلى .... يقينى أنكَ لولد صالح . إذكرنى

ولا تلمنى . هذا بيت من بيت بعته غصبا فربما كان حراما . هذا أثاث من مال فيه الغصب أيضا إقرأ تعلم ولا تلمنى . الصحيح والمؤكد أنك حلال كلك . ولا تسل كيف استطاع أبوك أن يحفظ عقله ولا يصيبه جنون .

وقفزت فى الهواء وعدت داخلا الى حجرة المطبخ حيث تقف نوال مكورة البطن تعد إفطارا شهيا .

— تنفسى هذا الهواء .

كورت كفىّ أمامها متجاورتين كمن يحمل فيهما ماء . نظرت الىّ بدهشة ثم ضحكت وتراجعت .

— تنفسى هذا الهواء بسرعة .

قلت زكت أضحك ورأيت عينيها العسليتين تلمعان بدهشة .

— أنت مجنون .

— أنت لا تفهمين . بسرعة .

— شجرة . عقلك ياحبيبى !

— تنفسى ، أخبرك

وقربت كفىّ من شفتيها أكثر فلم تستطع التراجع لأن خلفها المطبخ الجديد الذى يزين الجدران . لا أستطيع أن أقترب بجسمى كثيرا من بطنها ، لكن يدىّ صارتا قريبتين من شفتيها .

— بعمق .

قلت فشهقتْ الهواء كله الذى أحسسته يندفع من بين يدىّ حتى أنهما صارتا مثلجتين . كان براد الشاى يغلى ويرتفع غطاؤه متوترا من ضغط البخار فيحدث صوتا مترددا .

— لقد كلمت ابنى فى الشرفة

فتحتْ عينيها الى أقصى اتساع .

— ولمست الكلام من الفضاء فى كفىّ وأردت أن أرسله إليه . هل هناك طريقة غير ما فعلت ؟ .

انطلقت تضحك بابتهاج .

— مجنون بحق . ثم من أدراك أنه ولد ؟

— أعرف ذلك . وسأسميه « على » وأوصيه أن يسمى ابنه « محمد » ويوصى هو محمد أن يسمى ابنه « شجرة » فيكون « شجرة محمد على » من جديد فى الجيل الثالث . وينجب شجرة ولدا يسميه على ، وينجب على محمد ، وينجب محمد شجرة ، وتظل الدورة دائرة فيتكرر اسمى واسم أبى وجدى مرة كل ثلاثة أجيال .

كانت تتأملنى متألقة بالدهشة وترفع حاجبيها

— ولماذا هذا كله ؟

تساءلَت فقبلتها بسرعة على خدها من الجانب وأخذت أدوات الصيد هتفتْ :

— الإفطار ؟ .

— أنا سعيد اليوم ولا حاجة لى بطعام .

***

نزلت فرأيت الفضاء يفتح ذراعيه ضاحكا بالصفاء ما هذا البياض المشرب بالزرقة الناعمة . ما هذا الهواء العذب الذى أكاد أقفز سابحا فيه ؟ لقد تذكرت الآن . بالخسارة وحماقتى المائة جنية التى خبأتها فى المرتبة منذ خمس سنوات هى الفكرة الغائمة التى كانت تتخايل أمام ذهنى . هى ما كنت أريد أن أتذكره ولا أدركه هى التى قطعت علىّ حديثى وصمتى . ضاعت المائة جنيه إذن ولا سبيل إليها لقد بعت الأثاث القديم كله لبائع روبابكيا نادرا ما يأتى ناحية البحر . وحتى لو قابلته فلابد أنه باع الأثاث بدوره لتاجر أكبر . وتوقفت . ماذا لو

أحركها ؟ أصبح لى شقة بلونها ، وتزوجت بلونها ، وسيصبح لى ولد بلونها أيضا . منذ عشرين سنة ضاعت مائة جنيه من أحد جيراننا فأشعلت زوجته فى نفسها النار . كانت ثمن قطعة أرض ورثها . فى ذلك الوقت كان الكثيرون ينتحرون بالدى . دى . تى . جرى الزوج إلى بطانية فوق السرير وحملها ليلقيها فوق زوجته يحتضنها ويلفها بها بإحكام مجنون . لم يدر المسكين أن طفله المولود منذ شهر كان ملفوفا بالبطانية ، وأنه سقط بينهما ، وأصبح هو يقف فوقه . ولم يفهم معنى الصرخات المستميتة لزوجته ومحاولتها التخلص منه . لم يدر أن من عينيها تكاد تقفز أذرع وأياد تبعده عنها وتلتقط ابنها . انقذ زوجته حقا لكنها عاشت تتمنى لو ماتت ، وعاش هو مثلها شارد النظرات ... يا الله . ذلك زمن سحيق للغاية . لا أحد يقتل نفسه الآن من أجل مائة جنيه . ثم أنه خطأى ولا يجب أن أفسد هذا اليوم الجميل .

مشيت فكدت أصطدم بالمقدس يحيى قادما من الشارع القديم الذى لم أعد أمشى فيه .

— أنت ؟ . أما زلت حيا ؟ .

— مثلنا لا يموت ياأستاذ شجرة . كنت قادما اليك

وقفت أتأمله كيف صارت ثيابه جديدة نظيفة .

— أهلا بك . أعود معك الى البيت .

قلت أحاول التلطف به فقال :

— لا داعى . أولا أبارك لك فى زواجك . تأخرت عليك لكثرة مشاغلى . ثانيا إذا كان لك أصدقاء يريدون شراء شقق فأنا رهن خدمتك . أنت شخص طيب تستحق كل خير وأنا أريد سكانا مثلك .

ظللت أواصل تأملى . يتكلم معى كأنه صديقى لمجرد أنى حاولت التلطف به . الأكثر أنه صادق فى كلامه فقد كان قادما لزيارتى حقا . كدت أضحك وأنا أتذكر حسنين وهو يقول عنه أنه يصلح نقيبا للعمال

تخيلته غارقا وسط المشاكل بحجمه الصغير المستدير . لقد كانت استقالتى مفاجأة حاول الكثيرون أن يثنونى عنها وبخاصة الأسطى زنهم الذى قلت له أن لا يحاول الاتصال بى لأى سبب ، وكان توقعى فى محله فلم يفكر رئيس مجلس الادارة فى الغاء قراره بجعل « الملفات » قسما صرت أنا رئيسه بما يتمتع به الرئيس من مزايا . قلت :

— هل تبنى عمارة الآن ؟ !

— أجل . هنا . فى هذا الشارع . بيت الياسمين . لابد أنك تعرفه . إشتريته وسأبنى عمارة مكانه .

كدت أقف على أصابع قدمى . وابتعدت خطوة إلى الوراء . ها هى بهجة اليوم تكاد تفسد . وقال :

— إشتريته لنفسى هذه المرة .

كان يبتسم بثقة وسعادة طافحة . قلت :

— سأحاول أن أجد لك بعض الأصدقاء .

كنت أريد الإفلات منه بأى طريقة . مئات الأطنان من الحجر والأسمنت والحديد ستوضع فوق الوجه الذى ما رأيت مثله ولن أرى . ترى أين هى صاحبة الوجه البهى الآن ؟ . هل كان ممكنا أن أتزوجها حقا ؟ ، لا ، ليس فى الدنيا كلها أجمل من نوال . أليس كذلك ؟ ...

ومضيت . ما كدت ابتعد عنه حتى زفرت زفرة طويلة وفكرت أن أعود بلا صيد . ما معنى أن يأتى هذا الصاعد من الأزقة العفنة ويمتلك بيتا أقدم من عمرى وعمرك كما قال عبد السلام ؟ . لكنى سرت فى طريقى . لا يجب أن يخيب إحساسى بالهواء النقى الفرحان حولى ، ولا بالفضاء الواسع الأكبر من كل شىء ، وليمتلك بيت الياسمين كل لصوص العالم ، فلن يوجد شخص أبدا فى كآبة صاحب البيت القديم .

— انتهت —

القاهرة

١٩٨٤ — ١٩٨٥



هذه الرواية القصيرة « بيت الياسمين » أقل ما يقال عنها أنها تحفة فنية. فهي من ناحية تعيد الينا تقاليد الأدب الساخر ، الذى انحسر قليلاً عن فن الرواية بعد المازني. ومن ناحية تعكس الأضواء علي حالة الجيل الذي انتصر فى حرب أكتوبر ليجد نفسه غريباً فى مجتمع يتحول بسرعة من أهدافه . انها اذن نموذج لروايات الجيل الضائع ، وهى من ناحية الشكل تقدم تونية لم تستخدم من قبل حيث قدم الكاتب لكل فصل بلوحة نفاذة تختلف تماماً مع لغة الفصل نفسه. وتوسع في دلالة الرواية . إنها بإختصار بللورة سحرية بنظرة واحدة تكشف لك عشرات الصور .

قرش جنية

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية